Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

39141

PT 25 - 20% Ma'arif
3/4/45
C
119

طه حسين

جنة الشوك

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARY

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف

893.7H954
S

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

« لَا يَرَانِي اللهُ أَرْعَى رَوْضَةً
سَهْلَةَ الْأَكْنَافِ مَنْ شَاءَ رَعَاهَا »

موفق الدين الاربلي

« إنى أُبغض الشِّعْرَ اليسيرَ ، وأكره الطريقَ المطروقةَ التى يَسْلُكُها كلُّ إنسان ، ولا أشرب من الحوض المباح ، وأعاف ما تبتذله الدهماء . »

كليمك

تقـدمة

هذا لون من ألوان القول لم يطرقه أدباؤنا المعاصرون ؛ لأنهم لم يلتفتوا إليه ، أو لأنهم لم يحفلوا به ، مع أنه من أشد فنون القول ملاءمة لهذا العصر الذى نعيش فيـه . فنحن نعيش فى عصر انتقال كما يقال لنا منذ أخذنا نعرف الحياة . وعصور الانتقال تمتاز بما يكثر فيها من اضطراب الرأى واختلاط الأمر وانحراف السيرة الفردية والاجتماعيـة عن المألوف من مناهج الحيـاة . وهـذا كله يدفع إلى النقد ، ويحمل على العنـاية باصلاح الفاسد وتقويم المعوج والدلالة على الخير ليقصد إليـه ، وعلى الشر لتتنكب سبيله ، وإظهار ما يحسن وما لا يحسن فى صور قوية أخاذة ، عميقة الأثر فى النفوس ، شـديدة الاستهواء للذوق ، عظيمة الحظ من ملاءمة الطبع .

ونحن نعيش فى عصر ما زلنا نسمع أنه عصر السرعة ، يقصر فيه الوقت مهما يكن طويلا عما نحتاج إلى أن ننهض به من الأعباء التى لم تكثر ولم تثقل على الناس فى عصر من العصور كما تكثر وتثقل وتتنوع وتزدحم فى هذه الأيام . وهذا كله يحمل على أن نؤثر الإيجاز على الإطناب ، ونقصد إلى ما يلائم وقتنا القصير وعملنا الكثير وهذه اللحظات التى يتاح لنا فيها شىء من الفراغ للاستمتاع بلذات الأدب الخالص والفن الرفيع .

وليس من شك فى أن حياتنا الحديثة قد وجدت من أدبنا الحديث مرآة صادقة تصورها أحسن التصوير وأدقه وأعظمه حظًّا من إمتاع العقل وإرضاء الذوق وملاءمة الطبع . فقد عرفنا المقالة منذ أواخر القرن الماضى ، وعرفنا أنواعها المختلفة وفنونها المتباينة ومحاولاتها الناجحة لتصوير ما نحتاج إلى أن يصوِّر لنا من ضروب الحياة التى نحياها ، ناقدة مرة ومقرظة مرة أخرى ، معلمة مرة ومعنية بالإمتاع الفنى مرة أخرى ، متناولة للسياسة على اختلاف ألوانها ، وللحياة الاجتماعية

على تباين أشكالها ، وللحياة العقلية على تنوع فروعها .

ثم عرفنا القصة التى تقصد تارة إلى الأدب الخالص ، وتارة إلى تصوير الحياة المصرية أو الحياة الإنسانية بوجه عام . وعرفنا الكتب التى يهجم أصحابها فيها على ضرب من ضروب الحياة ينقدونه نقداً مباشراً ، أو على لون من ألوان الحياة يحببونه إلى الناس ويدعونهم إليه ، أو على مسألة من مسائل العلم ، أو قضية من قضايا الفلسفة ، أو مذهب من مذاهب الأخلاق ، أو اتجاه من اتجاهات الفن والأدب . كل ذلك وأكثر من ذلك قد ظفر به أدبنا الحديث ، وانتهى منه إلى حظ لا بأس به . ولكنه مهما يبلغ من الرقى ومهما يعظم حظه من التنوع والاختلاف والخصب لن يغنى عن هذا الفن الجديد القديم الذى ينقد فى سرعة وخفة ودقة وإيجاز ، ويحاول مع هـذا كله أن يكون كلاماً مختاراً يروق بلفظه ومعناه كما يروق بصيغته وأسلوبه ، ويصلح من أجل هذا كله لأن يكون أدبا يجـد القارئ فيه ما يحب أن يجد فى الأدب من لذة العقل والذوق والقلب والأذن واللسان جميعاً .

وقد قلت إن هذا الفن جديد قديم . ولا بد من أن أفسر هذه العبارة التى تظهر متناقضة ، وهى على ذلك صادقة كل الصدق ملائمة كل الملاءمة لحقائق التاريخ الأدبى العام من جهة ، ولحقائق التاريخ الأدبى العربى من جهة أخرى . وأول حقيقة يجب تقريرها هى أن هذا الفن كغيره من فنون القول قد نشأ منظوماً لا منثوراً ؛ فهو منذ نشأته الأولى فى الأدب اليونانى مذهب من مذاهب الشعر ولون من ألوانه ، نشأ يسيراً ضئيلا ، ثم أخذ أمره يعظم شيئاً فشيئاً حتى سيطر أو كاد يسيطر على الأدب اليونانى فى الإسكندرية وغيرها من الحواضر اليونانية ، فى العصر الذى تلا فتوح الإسكندر . وهو قد نشأ كذلك فى الأدب اللاتينى ضئيلا يسيراً ، حتى إذا اتصل الأدباء اللاتينيون بالأدب اليونانى عامة وبالأدب الإسكندرى خاصة ، ترجموا ثم قلّدوا ثم برعوا ، حتى أصبح هذا الفن من فنون الشعر اللاتينى ممتازاً أشد الامتياز وأعظمه فى القرنين الأول والثانى للمسيح ، أى فى العصر المجيد من عصور الإمبراطورية الرومانية .

أما فى أدبنا العربى فقد تأخرت نشأته شيئاً ما ؛ فلم يكد يعرفه الأدب الجاهلى ، أو نحن لا نعرف من الأدب الجاهلى ما يمكّننا من أن نقطع بأن الشعراء الجاهليين قد حاولوه أو قصدوا إليه . ولم يعرفه الأدب الإسلامى[1] . وأكبر الظن أن الشعراء الإسلاميين لم يعرفوه ؛ لأنهم لم يَرثوه عن الفحول الجاهليين ، ولأنهم لم يشهدوا حياة متحضرة مترفة كالتى عرفها شعراء الإسكندرية وشعراء روما ، وإنما عرفوا حياة قد اتصلت بالحضارة ولكنها لم تبرأ من البداوة ، وقد حفظت تُراثاً قديماً ضخماً ومذهباً فى الشعر مألوفا ، أخصُّ ما يمتاز به طول النَّفَس حتى يؤدّى الشاعر ما يحتاج إلى تأديته فى أناة ومهل لا تمتاز بالقصر ولا بالاختصار .

فلما كان العصر الثانى من عصور الحضارة الإسلامية ، أزهر فى العراق هذا الأدب العباسى الجديد ، ظهر هذا الفن فى الأدب العربى قويًّا خِصْباً مختلفاً ألوانه فى البصرة والكوفة وبغداد . ولكن حياته لم تطل ، وإنما اقتضت

(١) وقد يروى شىء منه بين الفرزدق وعبد الله بن الزبير مثلا .

ظروفُ السياسة والأدب أن يعدل الشعراء الفحول عنه عدولا يوشك أن يكون تامًّا ، وأن يستخفى به بعض الشعراء و بعض الكتّاب ، بل بعض الذين لا تعرف لهم سابقة فى الشعر ولا فى النثر لأسباب قد أبينها فى غير هذا الحديث .

ثم كانت عصور الضعف الأدبى ، فذهب هذا الفن من فنون القول فيما ذهب ، واستؤنفت فى عصرنا الحديث حياة أدبية تقليدية عُنِى فيها أدباؤنا بعمود الشعر ، ولم يخالفوا عن سنّة الفحول من الجاهليين والإسلاميين والمُحْدَثين ، فلم يحفلوا بهذا الفن الذى لم يزدهر فى تاريخ الشعر العربى إلا وقتاً قصيراً . وقد نُقلت الآداب اليونانيـة واللاتينية إلى اللغات الأوربية فى العصر الحديث ، فقلّد الشعراء الأوربيون فى هذا الفن كما قلدوا فى غيره من الفنون ، ثم ابتكروا فيه كما ابتكروا فى غيره من الفنون ، حتى أغنوا آدابهم منه بألوان رائعة . ولكن النهضة الشعرية التى دفع الأوربيون إليها منذ أواخر القرن الثامن عشر صرفتهم عنه إلى مذاهب أخرى من الشعر صرفاً يوشك أن يكون تامًّا .

فأنت ترى من هذه الخلاصة القصيرة القاصرة أننا بإزاء فن من فنون الشعر عرفته الآداب الكبرى القديمة والحديثة ، وسبق إليه اليونان كما سبقوا إلى غيره من فنون الشعر والنثر . فاذا كان فى هذا اللون الذى يُعْرَضُ عليك فى هذا الكتاب من ألوان الكلام شىء جديد فهو أنه يُعْرَض عليك نثراً لا شعراً ؛ لأن الذى يقدَّم إليك هذا الكتاب لم يتح له قرض الشعر من ناحية ، ولأنه كغيره من الكتّاب القدماء فى الأدب العربى لا يكره أن يزاحم الشعراء على فنون الشعر ، وأن يوسع ميدان النثر على حسابهم بين حين وحين . وقديماً طرق الكُتّاب فى البصرة وبغداد وغيرهما من الحواضر الإسلامية فنوناً كان الشعراء يحتكرونها لأنفسهم ، فلم يمنعهم ذلك من أن يجيدوا التقليد ، ثم لم يمنعهم ذلك من أن يجيدوا الابتكار ، ثم لم يمنعهم ذلك من أن يكونوا أئمة يذهب الشعراء فى الشعر مذهبهم فى النثر . وما أظن أن حلّ المنظوم ونظم المنثور يدلان على شىء غير هذا الذى أشرت إليه .

ولكن من حقك أن تسألنى عن هذا الفن الغريب الذى أطلت القول فى تاريخه دون أن أبين لك حقيقته وأعرض عليك خصائصه ، وأفرّق لك بينه و بين غيره من فنون الشعر . وليس المهم هو أنى أحسنت ابتغاء الوسيلة إلى نفسك أو لم أحسنه حين بدأت بهذا الكلام الكثير عن فن لم أبين لك عن حقيقته ولا عن خصائصه ، وإنما المهم هو أن أكشف لك عن هذه الحقيقة ، وأعرض عليك هذه الخصائص ، لنستطيع أن نمضى معاً على شىء من البصيرة والثقة فيما سنستأنف من القول .

ويجب أن أعترف بأنى لا أعرف لهذا الفن من الشعر فى لغتنا العربية اسماً واضحاً متفقاً عليه ، وإنما أعرف له اسمه الأوربى ؛ فقد سماه اليونانيون واللاتينيون « إپيجراما » أى نقشاً ، واشتقوا هذا الاسم اشتقاقاً يسيراً قريباً من أن هذا الفن قد نشأ منقوشاً على الأحجار ؛ فقد كان القدماء ينقشون على قبور الموتى وفى معابد الآلهة وعلى التماثيل والآنية والأداة البيتَ أو الأبيات من الشعر ، يؤدون فيها غرضاً قريباً أول

الأمر ، ثم أخذ هذا الفن يعظم و يتعقد أمره ، حتى نأى عن الأحجار ، واستطاع أن يعيش فى الذاكرة وعلى أطراف الألسنة ، ثم استطاع أن يعيش على أسلات الأقلام وفى بطون الكتب والدواوين . وقد أطلق اليونانيون واللاتينيون كلمة « إپيجراما » أول الأمر على هذا الشعر القصير الذى كان يُنقَش على الأحجار ، ثم على كل شعر قصير ، ثم على الشعر القصير الذى كانت تصوَّر فيه عاطفة من عواطف الحب أو نزعة من نزعات المدح ، أو نزغة من نزغات الهجاء . ثم غلب الهجاء على هذا الفن ، ولا سيما عند الإسكندريين وشعراء روما و إن لم يخلُص من الغزل والمدح . فلما كان العصر الحديث لم يكد الشعراء الأوربيون يطلقون هذا الاسم إلا على الشعر القصير الذى يُقْصَدُ به إلى النقد والهجاء .

أما أدبنا العربى فإنه لم يحفل بأن يلتمس لهذا الفن اسماً خاصًّا ، وإنما هو يقسم الشعر من حيث الطول والقصر إلى القصيدة والمقطوعة . وهو يطلق اسم القصيدة على الشعر الذى تتجاوز أبياته السبعة عند بعض النقاد والعشرة عند بعضهم

الآخر ، ويطلق اسم المقطوعة على الأبيات التى لا تتجاوز السبعة أو العشرة . ومثل هذا يقال فى الرجز ؛ فالأرجوزة هى التى تزيد على سبعة أبيات أو عشرة أبيات ، والمقطوعة هى التى لا تزيد على هذا العدد أو ذاك . وواضح أن كلمة المقطوعة يمكن أن تدل على كل شعر لم يزد على هذا العدد أو ذاك مهما يكن موضوعه ، ومهما يكن مذهب الشاعر فيه ؛ فهى لا تدل على هذا المعنى المحدود كما تدل كلمة « إپيجراما » عليه عند اليونانيين واللاتينيين والفرنج . ولكن هذا لا يمنع أن هذا الفن قد وجد فى أدبنا العربى وجوداً قوياً بعيد الأثر عظيم الخطر ، على النحو الذى وجد عليه فى الإسكندرية وروما وفى الحواضر الأوربية فى العصر الحديث .

وأول ما يمتاز به هذا الفن أنه شعر قصير ، فإذا طال فهو قصيدة فى الغزل وفى المدح أو فى الهجاء . فالقصر إذاً خصلة مقوِّمة لهذا الفن . ثم يمتاز بعد هذا القصر بالتأنق الشديد فى اختيار ألفاظه بحيث ترتفع عن الألفاظ المبتذلة دون أن تبلغ رصانة اللفظ الذى يقصد إليه الشعراء الفحول فى القصائد

الكبرى ، وإنما هو شيء بين ذلك لا يبتذل حتى يفهمه الناس جميعاً فتزهد فيه الخاصة ، ولا يرتفع حتى لا يفهمه إلا المثقفون الممتازون والذين يألفون لغة الفحول من الشعراء .

ومصدر ذلك أن هذا الفن إنما ازدهر وعظم خطره فى عصور الحضارة المترفة التى تدعو إلى التأنق وتدفع إلى التكلف ، وتباعد بين الناس وبين عصور البداوة وآدابها الجزلة التى تبهر وتروع ، ولكن ذوقها يختص به المثقفون الممتازون دون هذه العامة التى تحيا حياة مبتذلة وتصوّرها تصويراً مبتذلا . والواقع أن الشعراء الذين عُنوا بهذا الفن عناية خاصة ، فوضعوا له أصوله وقوانينه قد كانوا من شعراء القصور فى الإسكندرية وروما وفى كثير من الحواضر الأوربية . وقد كانوا من الشعراء المتصلين بالقصور اتصالا قوياً أو ضعيفاً فى العصر العباسى الأول . فالشاعر اليونانى المبرز فى هذا الفن « كلّيماك » قد كان شاعر القصر فى الإسكندرية أيام بطلميوس الثانى . والشاعر اللاتينى المبرّز فى هذا الفن « مارسيال » قد كان شاعر القصر فى روما أيام الإمبراطور

« دوميسيانوس » . والشعراء العرب الذين عُنُوا بهذا الفن فى البصرة والكوفة وبغداد قد كانوا يتصلون بقصور الخلفاء والأمراء والوزراء فى هذه الحواضر الثلاث من عواصم الإسلام . فليس غريباً أن يتأثر هؤلاء الشعراء بهذه الحياة الناعمة المترفة التى تكون فى القصور . وليس غريباً أن يلائموا بين ما يختارون لمعانيهم من الألفاظ وبين ما فى هذه الحياة المترفة من التأنق والتكلف والامتياز . وليس معنى هذا أن الألفاظ التى تُختَارُ لهذا الشعر يجب أن يبعد بها التأنق كل البعد عن الابتذال أو ينأى بها كل النأى عن جزالة الفحول ، وإنما معناه أن الشاعر يجب ألا يلجأ إلى الألفاظ المبتذلة المسرفة فى الابتذال أو الرصينة المغرقة فى الرصانة إلا حين يدعوه الفن إلى ذلك ويضطره إليه اضطراراً .

ثم يمتاز هذا الفن بعد هاتين الخصلتين ، أو قل إن شئت قبل هاتين الخصلتين ، بخصلة ثالثة تتصل بالمعنى ، وهى أن يكون هـذا المعنى أثراً من آثار العقل والإرادة والقلب جميعاً . فليس هو شعراً عاطفيًا يصدُر عن القلب

أو يفيض به الطبع ، وليس هو شعراً يصنعه العقل وحده ، وإنما هو مزاج من ذلك يسيطر الذوق عليه قبل كل شيء . أثر العقل فيه أنه نقـــد لاذع ، أو هجاء مُمضٌ ، أو تصوير دقيق لشيء يُكْرَهُ أو يُحَبُّ . وهذا كله يحتاج إلى بحث وتفكر وإلى روية وتأمل ، ولا يأتى مستجيباً لعاطفة من العواطف أو هوى من الأهواء . وأثر الإرادة فيه أنه لا يأتى عفو الخاطر ولا فيض القريحة ، وإنما يقصد الشاعر إلى عمله وإنشائه ، ويستعد لتجويده والتأنق فيه . وأثر القلب فيه أنه يُفيض عليـه شيئاً من حرارته وحياته ، ويُجرى فيه روحاً من قوّته التى يجدها عند ما يُقبِلُ على الخير أو عند ما ينفر من الشر ، عند ما يرضى ، وعنـد ما يسخط . فالمعنى فى هذا الشعر يجب أن يكون قويًا حتى حين يظهر فيه الضعف ، حادًا حتى حين يظهر فيه الهدوء ، ممتازاً حتى حين يظهر فيه الابتذال . وكل هذا لا يتأتى إلا إذا صح التعاون بين القلب والإرادة والعقل والذوق على هذا الإنشاء .

ثم يمتاز هذا الفن بخصلة أخرى لا أدرى كيف أصوِّرها ، ولكن سأحاول ذلك كما أستطيع ، وهى أن تكون المقطوعة منه أشبه شىء بالنصل المرهَف الرقيق ذى الطرف الضئيل الحادّ قد رُكِّبَ فى سهم رشيق خفيف لا يكاد يُنْزَعُ عن القوس حتى يبلغ الرَّمِيَّةَ ثم ينفذ منها فى خفة وسرعة ورشاقة لا تكاد تُحَسّ . ومن هنا امتاز هذا الفن بالبيت الأخير أو البيتين الأخيرين من المقطوعة ، فهما يقومان منها مقام الطرف الضئيل النحيل الرقيق الرشيق من نصل السهم . فإذا كانت المقطوعة بطيئة الحركة ثقيلة الوزن فليست من هذا الفن فى شىء . وإذا كانت المقطوعة مثلومة الحدّ كليلة لا تقطع إلا بعد جهد ولا تنفذ إلا بعد مشقة ، فليست من هذا الفن فى شىء . وإذا أردت أن تلتمس لهذا الفن صوراً شعرية تحقق هذه الخصال كلها فى أدبنا العربى فاعمد إلى شعر بشّار وحمّاد ومُطيع وأصحابهم فى البصرة والكوفة وبغداد ، فستجد من ذلك أكثر مما تريد وأكثر مما تحب .

وهنا أصل إلى الخصلة الأخيرة التى شاعت فى هذا الفن عند القدماء من اليونانيين واللاتينيين والعرب، وإن لم تكن شاملة ولم تبلغ أن تصير قانوناً من قوانين الفن، وهى هذه الحرية المطلقة التى يتجاوز بها أصحابها حدود المألوف من السنن والعادات والتقاليد، والتى تدفع أصحابها إلى الإفحاش فى اللفظ، وإلى الإفحاش فى المعنى، وإلى التحرر مما يفرضه الذوق النقىّ على الرجل الكريم حين يتحدث إلى الناس أو حين يتحدث عن الناس. وأنت واجدٌ من هذا شيئاً كثيراً عند بشار وأصحابه فى البصرة والكوفة وبغداد، كما أنك واجد منه شيئاً كثيراً عند «كلّيماك» و«مارسيال» وأصحابهما من شعراء الإسكندرية وروما. ولعلك تجد شيئاً من هذا عند بعض الشعراء المحدثين قبل الثورة الفرنسية فى إيطاليا وفرنسا، ولكنه قليل بالقياس إلى ما تجده عند القدماء.

من هذا كله تتبين حقيقة هذا الفن وخصائصه، وتتبين بنوع خاص أنه لون من ألوان الشعر الهجائى،

يُقْصَدُ به إلى القِصَر والخفة والحدّة ليكون سريع الانتقال ، يسيرَ الحفظ ، كثيرَ الدوران على ألسنة الناس ، يسير الاستجابة إذا دعاه المتحدث فى بعض الحديث ، أو الكاتب فى بعض ما يكتب ، أو المحاضر فى بعض ما يحاضر ، ثم ليكون مضحكا للسامعين والقارئين بما فيه من عناصر الخفة والحدة والمفاجأة ، ثم ليكون بالغ الأثر آخر الأمر فى نفوس الأفراد والجماعات ، يدفعهم إلى ما يريد أن يدفعهم إليه من الخير ، ويردهم عما يريد أن يردهم عنه من الشر فى غير مشقة ظاهرة أو جهد عنيف .

وليس من شك فى أنك قد ارتعت حين بلغت هذا الموضع من هذا الحديث . قد ارتعت من جهة ، وثار فى نفسك حب الاستطلاع من جهة أخرى . فأنا أصوِّر لك فنًّا من فنون النقد اللاذع والهجاء الممضّ الذى هو أشبه بالسهام التى لا تنزع عن القوس إلا أصْمَتْ وأرْدَتْ من تصيب . وأنا أصور لك فنًّا من فنون الهجاء لا يتورّع أصحابه عن فاحش اللفظ وقبيح المعنى وسيئ

الرأى فى الحياة والأحياء . وأنا أقدّم لك هذا التصوير بين يدى كلام أزعم أن بينه و بين هذا الفن صلة . فأنت مشفق مرتاع ، تسأل نفسك إلامَ أريد بهذا الكتاب ؟ وما هذه السهام الرقيقة الرشيقة الموسومة المسمومة التى أرسلها ؟ وإلى من أريد أن أرسلها ؟ كل هذه الأسئلة تخطر لك فتثير فى نفسك روعا وإشفاقاً ، وتثير فى نفسك شوقاً إلى المعرفة وكلفاً بالاستطلاع . فلا تشفق ولا ترتع ، ولا تمنِّ نفسك الأمانىّ ولا تخدعها بالغرور ؛ فليس فى هذا الكتاب هجاء وقد انقضى عصر الهجاء منذ زمن طويل . وليس فى هذا الكتاب سهام موسومة أو مسمومة فقد انقضى عصر التراشق بالسهام منذ عهد بعيد . ولست أريد بهذا الكتاب إلى أحد ؛ فإنى لا أعرف من أمر الذين ألفتهم من قريب أو من بعيد إلا خيراً .

ولست أريد بهذا الكتاب إلى شىء إلا النقد الذى يسمونه بريئاً فى هذه الأيام ، والنقد الذى يوجه إلى ألوان من الحياة لا إلى أفراد بأعينهم من الناس . ومن المحقق أنى لم أخترع

هذا الكلام من لا شيء ، ولم أشتق هذه الصور من الهواء ، ولم ألتمسها فى الصين ولا فى اليابان ولا فى بلاد الهند والسند ، وإنما أنا أعيش فى مصر ، وأشارك المصريين فى الحياة التى يحيونها ، وآخذ بحظى مما فى هذه الحياة مما يُرْضِى وما يُسْخِط . وأنا بعد ذلك أعرف أقطاراً من الأرض سافرت إليها وأقمت فيها أو قرأت عنها فى الكتب والأسفار . وأنا بعد هذا وذاك أعرف أجيالا من الناس عشت بينهم أو قرأت أخبارهم وعرفت آثارهم فيما استطعت أن أظهر عليه من آثار الناس فى الشرق والغرب ، وفى الشمال والجنوب . ولست أزعم كما زعم أبو العلاء أنى أعرف الناس جميعاً ، وأنى قد بلوت أجيال الناس جميعاً ؛ فقد كان أبو العلا غالياً حين قال :

ما مَرّ فى هـذه الدنيا بنو زَمَنٍ
إلاّ وعِنْدِىَ من أنبائهم طَرَفُ

وأنا واثق كل الثقة بأن كثيراً من أبناء الزمان قد مروا فى هذه الدنيا وليس عندى من أنبائهم طرف

طويل أو قصير ، ولكنى واثق بأنى عرفت الناس ، وبلوت أخبارهم وآثارهم إلى حد ما ، وتأثرت بما بلوت من ذلك ، فسخطت حيناً ورضيت أحياناً ، وأظهرت ما وجدت من السخط والرضا فى صراحة واضحة تغنينى عن التلميح الغامض .

ثم أنا واثق بعد هذا بأن ما يقال فى نقد الناس وحمدهم إنما هو أشبه بالمرايا ، يرى الناس فيها أنفسهم ؛ لأننا لا ننقد عفاريت الجن ، ولا نحمد الملائكة الأبرار ، وإنما ننقد ونحمد ما نرى وما نعلم من أعمال الناس وآثارهم .

فأنا صادق حين أقول إنك لن تجد فى هذا الكتاب هجاء لاذعاً ، ولا نقداً ممضاً . وأنا صادق حين أقول إنك ستجد فى هذا الكتاب مرايا يمكن أن يرى الناس فيها أنفسهم . وليس عليهم ولا علىّ من ذلك بأس ؛ فما أكثر ما نرى أنفسنا فى كثير مما نقرأ من آداب القدماء والمحدثين مهما تكن اللغات والعصور والظروف والبيئات التى تنشأ فيها هذه الآداب .

وأنت بعد هذا كله مضطر إلى أن تخفف من شوقك إلى المعرفة وكلفك بالاستطلاع ؛ فإنى لا أريد أن أعلّمك شيئاً ، ولن تتعلم من هذا الكتاب شيئاً ، وإنما هو كلام ستقرؤه فترضى عنه أو تسخط عليه من الناحية الفنية الخالصة لا أكثر ولا أقل .

وواضح أنى لم أذهب مذهب القدماء فى الاندفاع مع الحرية الجامحة ؛ فالأدب العربى الحديث أكرم علىّ وآثر عندى وأنت وأنا أكرم على نفسى من أن أذهب هذا المذهب الذى قد مضى مع أصحابه القدماء .

وإذا أردت أن تعرف الحق الصريح من أمر هذا الكتاب فإنى منبئك به فى سذاجة يسيرة لا تكلفك مشقة ولا جهداً ؛ لأنى أنا لم أتكلف فى هذا الكلام مشقة ولا جهداً . فأنا رجل أحب القراءة ، وأحب القراءة المختلفة المتنوعة : أقرأ فى الأدب العربى القديم والحديث ، وأقرأ فى الآداب الأوربية القديمة والحديثة ؛ وأجد فى هذه القراءة متعة تكسب الحياة قيمة

خاصة . ولكن قد أقف عند هذا الفن أو ذاك من فنون الأدب وقفة خاصة ، فاسأل نفسى : أيوجد هذا الفن فى اللغة العربية أم لا يوجد ؟ أو أسأل نفسى : أتستجيب اللغة العربية لهذا الفن إن دُعيت إليه أم لا تستجيب ؟ ثم أسأل نفسى : أقادرٌ أنا على أن أُلائم بين هذا الفن وبين اللغة العربية أم غير قادر ؟ ولا أكاد أُلقى على نفسى هذا السؤال الأخير حتى أطلب إلى صاحبى أن يأخذ القلم والقرطاس ، ثم آخذ فى الإملاء ويأخذ هو فى الكتابة . فأما إن أحسست شيئاً من التوفيق إلى ما أردت فأنا ماض فى المحاولة حتى أنتهى بها إلى بعض غايتها ، ثم أذيع ذلك فى الناس ليقرءوا وليرضوا وليسخطوا ، وليقلد منهم المقلد ، وليعرض منهم المعرض . وأما إن أحسست عجزاً عن هذه الملاءمة فأنا أجدد المحاولة مرة ومرة حتى إذا استيأست أعرضت عن الإملاء وأعرض صاحبى عن القلم والقرطاس . والذين يقرءون ما أذعت فى الناس من الكتب منذ أكثر من ربع قرن يستطيعون أن يروا ذلك فى كثير

مما أذعت فيهم ، وأن يتبينوا فى وضوح وجلاء أنى أستجيب حين أكتب وحين أكتب فى الأدب خاصة لشيئين اثنين : أحدهما ما أرى من رأى أو أجد من عاطفة وشعور . والآخر امتحان قدرة اللغة العربية على أن تقبل فنوناً من الأدب لم يطرقها القدماء ، وامتحان قدرتى أنا على أن أكون الصلة بين اللغة العربية وبين هذه الفنون والآداب . وقد قرأت فيما قرأت كثيراً من شعر القدماء والمحدثين فى اللغة العربية وفى غيرها من اللغات التى أستطيع أن أفهمها . وأعجبنى هذا الفن من فنون النقد والهجاء . ورأيت أن العرب قد أخـذوا بحظ منه فى القرن الثانى فأجادوا ، ولكنهم لم يكادوا يتجاوزون هجاء الأشخاص وهذا العبث الذى كان القدماء يألفونه ويتهالكون عليه . ثم رأيت أن هذا الفن قد ذوى زهره وغاض ماؤه حين انقضى العصر العباسى الأول ، وأن الشعراء الفحول قد عادوا إلى الهجاء الطويل ، واستأنفوا مذهب القدماء من أعلام الجاهلية والإسلام .

ولم أكن صاحب شعر ولا قدرة على النظم ، فلم أحاول إذاً أن أردّ لهذا الفن حياته كما ألفها أيام بشار وأصحابه . ولكن ما يمنعنى أن أذهب فى هذا الفن مذهب القدماء على أن أتخذ النثر أداة مكان الشعر ! !

فلنجرب إذاً ، ولنمتحن أنفسنا ، ولنمتحن لغتنا ، ولنمتحن ذوق القراء . وقد جربت وأذعت مقطوعات قليلة لا تبلغ الست أو السبع فى الأهرام ، فرضى الناس وسخطوا ، وأثنوا وعابوا . ولست أريد من الإنتاج الأدبى إلا أن أذوق الرضا والسخط جميعاً . وإذاً فلنمض فى التجربة ، وقد مضيت . وهأنذا أقدّم إليك مائة ونصف مائة من هذه المقطوعات . فاقرأ إن شئت ، وارض إن أثارت القراءة فى نفسك الرضا ، واسخط إن أثارت القراءة فى نفسك السخط ، وأنا أعفيك من الثناء والتقريظ مخلصاً ، وأبيح لك النقد والعيب مخلصاً أيضاً ، وأتمنى أن يتاح للشباب من القراء أن يحاولوا من ذلك مثل ما حاولت ، وأن يبلغوا من ذلك أكثر مما بلغت . فالله يشهد ما كتبت ولا خطبت ولا حاضرت

إلا وفى نفسى أمنية هى أن أدفع الشباب إلى أن يعلموا ويعملوا وينتجوا ، ويتاح لهم أكثر مما أتيح لى من النجح والتوفيق .

دعاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : علِّمنى كلماتٍ أتّجه بهنّ إلى الله فى أعقاب الصلوات الخمس ؛ فإنى أجد فى نفسى حاجةً إلى الدعاء فى هذه الأيام الشِّداد .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : سَلِ الله يا بُنَىَّ أن يَعْصِمَكَ من صِغَرِ النفس الذى تضخُم له الأجسام ، ومن ضِيق العقل الذى تتّسع له البطون ، ومن قِصَرِ الأمل الذى تمتدّ له أسباب الغرور .

وكنت حاضر هذا الحديث بين الأستاذ الشيخ والطالب الفتى ، فقلت فى نفسى : ما أجْدَرَ الشَّبابَ المصريين أن يتَّخِذوا من هذا الدعاء لأنفسهم برنامجاً وشعاراً !

فيض

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فَسِّرْ لى قولَ القائل « فاض الإناء » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذا مجازٌ يا بُنَىَّ فى كلّ أمر تَجاوزَ حدَّه حتى أصبح لا يُطاق . ألم تسمع قول الشاعر :

شكوتُ وما الشكوى لِمِثلِيَ عادةً
ولـكن تفيضُ النفسُ عند امتلائها

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإنى أعرف أوعيـةً لا تمتلىء ، وآنيةً لا تفيض .

قال الأستاذ الشيخ مبتسما : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتى : خزائن الأغنياء التى مهما يُصَبَّ فيها من المال فهى ناقصة ، وجهنم التى يُقال لها : هَلِ امْتَلَأْتِ ؟

فتقول : هل من مَزِيدٍ ؟ وعقول العلماء التى لا تبلغ حظا من المعرفة إلاّ طَمعتْ فى أكثرَ منه .

قال الأستاذ الشيخ ضاحكا : لقد أصبحتَ حكيما منذ اليوم ، ولـكن تَعَلَّمْ أنَّ إناءً واحداً قد يفيض ، فيصبح مضرباً للأمثال ، ومصدراً للعِبَر ، وبعيدَ الأثر فى حياة الأجيال . ألا تذكر سَيْلَ العَرِمِ ! !

حرية

قال أحد أمراء الموصل وكان أريباً، لأحد نُدَمائه وكان أديباً : « ما شَرُّ ما يُمْتَحَنُ به الأديبُ ؟ » .

قال النديم وهو يبتسم : « فِقْدانُ الذوق الذى يجعل أدبَه فاتراً خيراً منه البارِدُ » . وأطرق النديم لحظةً ثم قال للأمير : « وما شَرُّ ما يُمْتَحَنُ به صاحب السلطان ؟ »

قال الأمير وقد ظهر فى وجهه العبوس : « ثناء الذين لا يُحسنون الثناء ، يقولون فينا فلا يُصَدِّقهم أحد ، ويقولون فينا فلا نصدِّقهم نحن ؛ لأنهم يقولون فينا وهم لا يصدِّقون أنفسهم » . قال أحد الجلساء : « فما يمنعكما أن تَحْظُرا على الأديب الذى لا ذوق له أن يُحْدِثَ أدباً ، وعَلَى المادح الذى لا فنَّ له أن يُحْدِثَ مدحاً ؟! » .

قال الأمير وعلى ثغره ابتسامة خير منها العبوس : « فإنَّ الحرية تأمُرنا أن نُخْلِيَ بين الناس وبين ما يقولون من الجِدّ والهُرَاء » .

حرية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تَرَ إلى فلان وُلِدَ حُرًّا وشبّ حُرًّا ، وشاخ حرًّا ، فلما دنا من الهَرَم آثر الرِّقَّ فيما بَقِي له من الأيّام على الحرية التى صَحِبها فى أكثر العمر ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أضعفته السِّنُّ فلم يستطعْ أن يحتمل الشيخوخةَ والحرِّيَّة معاً ، وأنت تعلم أن الحريّة تُحَمِّلُ الاحرارَ أعباءً ثِقالاً .

أدب

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أليس قد أدَّبنا الإسلام بأن نجلس بحيث ينتهى بنا المجلس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : بلى ! ولكن إذا انتهى بك المجلس إلى حيث تجاور مَنْ لا تحبّ أن يعرف السلطان أنك جاورتَه ، فلا عليك أن تتخطَّى رقاب الناس وتجلس حيث تأمن الغضب ولا تتعرَّض للأَثَمة . وقد أدّبتنا الحياة بأن الضرورات ، تُبيح المحظورات .

حرية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يُظْهِر سيرةَ الأحرار ويُخفِي سيرةَ العبيد ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ذلك أحْـرَى أن يُظْهِرَه على دخائل الأحرار لينقلها إلى سادته .

حرية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يرى آراء المُسْرِفين من أهل الشمال ، ويسير سيرةَ المسرفين من أهل اليمين ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن له عَقْلَ الحُرّ وأخلاق العبد .

وصول

لم يكن شيئاً ثم ارتقى حتّى أصبح شيئاً مذكورا. وقد سَلَكَ فى تصعيده من الحضيض إلى القِمّة طريقاً وَعْرةً ملتويةً، يغمُرها ضوء الشمس المُشْرِقة المُحرقة أحيانا، وتنظر إليها الشمس من وراء نِقابٍ من السحاب أحياناً أخرى، ويحجبها ظلامٌ قاتمٌ فاحمٌ فى كثير من أجزائها. فلما ارتقى إلى القمة واطمأنّ فى مكانه منها، نسى ماضيه كلَّه، وأعرض عن مستقبله كله، وعاش ليومه الذى هو فيه.

نسى الماضى، فلم يتعظ، وأعرض عن المستقبل، فلم يتحفظ؛ ومضى مع هواه طاغياً باغياً، حتى أخاف الناس من نفسه، وأخاف نفسه من الناس؛ فلم يأمن إلى أحد، ولم يأمن إليه أحد. وإذا هو مضطرٌّ إلى أن يُظْهِرَ الحبَّ لقوم يُبغضهم أشدَّ البغض، وإذا الناس

من حوله مضطرّون إلى أن يُظهروا له حبًّا متهالكاً ويُضْمِروا له بغضاً مُهْلِكاً ، وإذا الأسباب بينه وبين الناس تَرِثّ ، حتى إن أيسر الأمر لينتهى بها إلى الانقطاع .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد سمعتُ منك ولكنى لم أفهم عنك ، وإنك لتحدِّثنى بالألغاز منذ حين ، فماذا تَعْنِي وإلامَ تريد ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنّ حبّ الاستطلاع إنْ نفع فى بعض الوقت فقد يضرّ فى بعضه الآخر. وما عليك أن تفهمَ شيئا وتَغِيبَ عنك أشياء ! إنما هى مَرَايَا تُنْصَبُ للناس ، فلينظر فيها من يشاء ، وليُعْرِضْ عنها من يشاء . وربما كان الإعراض عنها خيراً من النظر فيها ؛ فقد ينظر فيها من يحبّ الاستطلاع مثلك فيسوءه ما يرى لأنه يرى نفسه .

ضمائر

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألاَ تُحَدِّثُنى عن هذه الضمائر التى تفعل ما تشاء ، ثم تستتر وراء أفعالها ، وُجوباً مرةً ، وجَوازًا مرة أخرى ؛ فهى دانية نائية ، وبادية خافية ، وهى ملحوظة غير ملفوظة ، ومعقولة غير مقولة ؛ وهى على ذلك تُكَلِّف الأساتذةَ والتلاميذ هَمًّا ثقيلاً ، وعناءً طويلاً !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ما أنت وهذه الضمائر البريئة النقيّة ! إنما هى بَنات الوهم ، قد فرضها العلماء رياضةً لعقول الطلّاب ، على التحليل والإعراب ، وهى لا تُؤذى أحداً من قريب أو بعيد . فإذا علمتَ عِلْمَها ، وذلك يسير ، فدَعْها وشأنَها ، وتَحَدَّثْ عن ضمائر أخرى أشدَّ فى حياة الناس خطراً ، وأبعد فى أعمالهم أثراً ، تستخفى فى أعماق النفوس ، عابسةً تُشيع الابتسامَ المريب ، ومظلمةً تنشر الضوء المخيف .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد عُدْتَ إلى ما دأبتَ عليه من الإلغاز ، فوَضِّحْ لى بعض ما تقول . . !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ما تقول فى ضمائر الأطبّاء حين يعودون المرضى ، وفى ضمائر المرءوسين حين يتلقّون أمر الرؤساء ، وفى ضمائر الطُّلّاب حين يسمعون دروس الأساتذة ، وفى ضمائر بعض الأصدقاء حين يَبْسِمُون للأصدقاء ؟

وكنت حاضر هذا الحديث ، فتلوت قول الله عز وجل:

« وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً » .

جحود

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : قد سمعنا منك وفهمنا عنك ، وأُعجبنا بك ، ولكنا لم نؤمن لما حدّثتنا به صباحَ اليوم ؛ فقد فسّرت لنا ما نقرأ فى الكتب ، ولم تفسّر لنا ما نرى فى الحياة .

قال الأستاذ الشيخ لطالبه الفتى فى صوت يكاد يُبِينُ عن خوف دفين : وما ذاك ؟ .

قال الطالب الفتى : لقد أنبأتنا ، كما أنبأتنا الكتب ، بأن من قدَّم إلى الناس خيراً لقى منهم خيراً ، ومن قدَّم إلى الناس شرًّا لقى منهم شرًّا . وقصصت علينا من كتاب المكافأة فى ذلك قِصَصًا رائعة ، وأخبارًا بارعة . ولكنا ننظر فنرى الصنيعة لا تكاد تُغْرَسُ فى قلوب الناس حتى تستحيل إلى شجرة الزَّقُّوم ، تلك التى وصفها القرآن الكريم ، بأنها طعامُ الأثيم ، كالمُهْلِ يَغْلِى فى البطون كغَلْيِ الحَمِيمِ .

قال الأستاذ الشيخ وعلى وجهه ابتسامة رفيقة رقيقة : فإنّ هذه الشجرة كما وصفها القرآن الكريم ، تَخْرُجُ فى أصل الجحيم ، وليست قلوب الناس كلهم جحيماً ؛ وإن منها لَجَنَّاتٍ يستحيل فيها الشرُّ خيرا ، والمساءة إحسانا . فاجعل ما نقوله لك من هذا عزاء عما تقوله لك الحياة ، وقَدِّمِ الخيرَ غير يائس من أن تُجْزَى عليه بمثله .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإنى أكره أن أتَّجِرَ بالمعروف ، وأُوثر أن أقدِّم الخير لا ألتمس له جزاء ، وأُوثر إذا لم يكن بُدٌّ من الجزاء أن أنتظره من الله الذى لا يذهب العُرْفُ بينه وبين الناس .

وكنت حاضر هذا الحديث ، فذكرت قول مؤرخ رومانى عظيم قلّما ينظر فيه الأُدباء المعاصرون : « إنّ الصنيعة لا تزال محتفظةً بقيمتها ما دام شكرها يسيراً ؛ فإذا جَلّتْ عن الشكر جُوزِيَتْ بالكفر والجحود » .

حمارا رهان

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أىُّ صَدِيقَيْكَ شرٌّ : هذا الذى يُوَادُّك حين تستغنى عنه ويُحَادُّك حين تحتاج إليه ، أم هذا الذى يَكْلَؤُك حين ترزؤك النقمة ، ويشنؤك حين تفجؤك النعمة ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كلاهما مريض يا بُنىَّ يَحْسُنُ أن نلتمس له الطِّبّ ونقدِّم إليه الدواء . فأما أوَّلهما فعِلّتُه الأَثَرَةُ التى تُفْسِدُ المروءة . وأما ثانيهما فعِلَّتُه الحَسَدُ الذى يُلْبِسُ ثوبَ الكبرياء .

وكنت حاضر هذا الحديث ، فلم أستطع أن أدافع ضحكاً عريضاً ؛ فنظر الشيخ وتلميذه إلىّ فى شىء من وجوم كأنهما يسألان عن هذا الضحك . فقلت : أذكرتمانى قصة العِبَادِىّ : فقد قيل له : أىُّ حِمَارَيْكَ شرٌّ : هذا الذى يُبْطِىء بك حين تحتاج إلى السرعة ، أم هذا الذى يُسرع بك حين تحتاج إلى الأناة ؟ فقال « هذا ثم هذا . »

حُلَّة

همَّ أمير الموصل أن يُهْدِى إلى أحد نُدمائه خِلعةً نفيسة، ثم غضب عليه لبعض الأمر قبل أن تَبْلُغَه الهدية. وكان النديم طويلًا فى السماء عريضاً فى الفضاء. وقد أراد الأمير أن يَغيظَهُ، فأهدى خِلْعَتَه إلى نديم آخر له كان قصيراً لا يكاد يرتفع عن الأرض، وضَيِّقاً لا يكاد يشغل من الفضاء إلا حيِّزاً ضئيلًا. وتلقَّى النديم هدية الأمير جَذْلان راضياً. فلما دخل فيها ضاع بين ثناياها؛ لأنها لم تُفَصَّلْ على قَدِّه. فأما الأمير وحاشيته فضحكوا وأغرقوا فى الضَّحك. وأما النديم فلم يَشُكَّ فى أن الخِلْعة قد خُلِقَتْ له. وأمَّا الناس فقد جعلوا كلّما رأوه يشيرون إليه، ويقول بعضهم لبعض: أنظروا إليه! إنه يرفل فى حُلَّةِ فلان.

وقار

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أترى إلى وقار فلان حين يسعى ؟ إن الناس لَيُعْجَبُون بما يصطنع من الأناة والمَهَل .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لواستطاع أن يسعى وهو واقف ، وأن يتحرك وهو ساكن لفعل .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ليته يأخذ نفسه بمثل ما يأخذ به جسمه من الوقار !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ! ذاك شيء لا يُتاح إلا لأولى العَزْم .

ذاكرة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أرى ذاكرة الشعوب إلاَّ كهذه اللوحات السود التى تُوضع للطلاّب والتلاميذ فى غُرُفات الدرس وحُجُراته يُثْبِتُ عليها هذا الأستاذ ما يمحوه ذاك ، وهى قابلةٌ للمحو والإثبات ، لا تستبقى شيئاً ولا تمتنع على شىء .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذا حق ، ولكن وراء هذه اللوحات السود فى ضمائر الشعوب ، لوحات أخرى ناصعة تحفظ ما يسجِّل التاريخ من أعمال الناس . ومن وراء هذه وتلك كِتَابٌ لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها ، ثم يسأل أصحابها عنها يوم لا تنفع خُلَّةٌ ولا شفاعة . فأضعفُ الناس عقلاً وأوهنهم عزماً وأكلُّهم حَدًّا هو الذى لا يحفِل إلاَّ بلوحاتك السود .

والرجل الماهر الأثر ذو القلب الذكىّ والبصيرة النافذة ، هو الذى يحفِل بما وراءها من هذه اللوحات الناصعة التى يكتب فيها التاريخ . والرجل كل الرجل هو الذى يمتاز بالضمير الحىّ والقلب النقىّ والنفس الزكية ، فلا يحفِل بهذه ولا تلك ، وإنما يحفل بهذا الكتاب الذى تُحْصِى الحَفَظةُ فيه على الناسِ أعمالَهم ، لتُعْرَضَ عليهم بين يَدَى الله فى يومٍ مقدارُه خمسون ألفَ سنةٍ مما تَعُدُّون .

إخاء

كانا صديقين وفيَّين، قد صفا بينهما الودّ، وارتفعت بينهما الكُلْفةُ، واشتدّت حاجة كليهما إلى صاحبه، حتى لم يكونا يفترقان إلا كارِهَيْن. وقد استقام لهما الودّ الخالص، والحب الصَّفْو، ما لم يَقْدِرْ أحدُهما لصاحبه على شيء من متاع الدنيا. ثم أُتيح لأحدهما حظٌّ من قوة، فأسدى إلى صاحبه طَرَفاً من خير. فما هى إلا أن تستحيل الصلة بينهما إلى شيء مُعَقَّد أشدّ التعقيد، فيه الاعتراف بالجميل؛ والاعتراف بالجميل يكدِّر صفو المودة. وفيه الاستزادة من النفع؛ ودخول المنفعة بين الأصدقاء مفسدٌ للصداقة. وفيه المَوْجِدة إذا لم ينل صاحب المنفعة ما يبتغى، وحاجةُ منْ عاش لا تنقضى، كما يقول الشاعر القديم؛ ودخول الموجدة بين الأصدقاء، حين لا يبلُغ أحدهم من نفع صاحبه

ما يريد ، أولُ مراتب العَدَاء . وفيه الحسد ؛ والحسد يأكل المودّة كما تأكل النار الحطب . ثم فيه الجحود ؛ والجحود لا يُفْسِد الودّ وحده ، ولكنه يُفسد المروءة أيضاً . أيجب إذاً أن يَعْجزَ الأصدقاء عن أن ينفع بعضهم بعضاً لِتَصِحّ بينهما الصداقة ، وليخلصَ بينهما الإخاء ؟ لا أدرى ! ولكنى أعلم أن ليس أخطر على المودة الخالصة من دخول المنفعة بين صديقين .

إخاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إن الشاعر يُخَيِّرنا بين الوَحْدة واحتمال الإخوان على عِلاّتهم حين يقول :

فَعِشْ وَاحِداً أوْ صِلْ أخاكَ فإنَّهُ
مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجَانِبُهْ

فأىّ الأمرين تحبّ لى أن أختار ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنَّ الشاعر لم يُخَيِّرْكَ ، وإنّما ألزمك الْخَصْلَةَ الثانية ؛ فأنت لا تستطيع أن تنسلّ من الحياة الاجتماعية ، كما لم يستطع أبو العلاء أن ينسلّ منها . فاحتملِ الحياة الاجتماعية كلها ، واصْبِرْ لما فيها من المِحَن .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وترى إخاء الإخوان مِحْنَةً ؟ .

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أى محنة !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كيف ذاك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إذا وفى لك الإخوان امْتُحِنْتَ فى وفائهم وفرضتْ عليك المروءة ألاَّ تَفْتُرَ ولا تبْطَرَ، ولا تستغلّ الوفاء فتَشُقَّ عليهم بما لا يُطيقون. وإن تَنَكَّرَ لك الإخوان امْتُحِنْتَ فى تنكُّرهم وفرضتْ عليك المروءة ألاّ تقسو ولا تظلم ولا تتَجَنَّى ولا تنتظر منهم فوق ما يطيقون. وأنت مُمْتَحِنٌ بعد ذلك فى نفسك، تفرض عليك المروءة أن تَفِىَ لهم إذا وَفَوْا، وتَصْفُوَ لهم إذا صَفَوْا، وتَعْرِفَهم حين يُنكرونك وتَنْصَحَهم حين يَغُشّونك، وتَبَرّهم حين يَغْدِرُونك، وتُعطيَهم أكثر مما يُعطونك، وتسيرَ من إخائهم على مثل الشوك.

صَدِّقنى ! إن إخاء الإخوان محنةٌ لا يَثْبُتُ لها إلا أولو العزم.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإنى أوثر الوحدة.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ! تلك أُمْنيّة تُبْتَغَى ولا تُنال.

إخاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كيف تقولون فى إعراب هذا البيت :

أَخَاكَ أَخَاكَ إنَّ مَنْ لا أَخَا لهُ
كَسَاعٍ إلى الهَيْجَا بغير سِلاَحِ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أمَّا النحويون فيقولون إن « أخاك » منصوبٌ على الإغراء ؛ لأن الشاعر يرغِّب فى حب الإخوان والوفاء لهم .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وأما أنت ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وأما أنا فأُعْـــرِبه منصوباً على التحذير ، وأغيِّر فيه كلمة واحدةً فانشده :

أَخَاكَ أَخَاكَ إنّ مَن لا أَخَا لهُ
كساعٍ إلى الهيجا بكلّ سلاحِ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إنك لشديد التشاؤم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى :

وهل أنا إلاّ كالزّمانِ إذا صحا
صَحوتُ وإن ماق الزمانُ أَمُوقُ

إخوان

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إنى أقرأ فى عيون الأخبار أن المأمون قال : الإخوان ثلاثُ طبقات : طبقةٌ كالغذاء لا يُسْتَغْنَى عنه ، وطبقةٌ كالدواء لا يُحْتَاجُ إليه إلاّ أحيانا ، وطبقةٌ كالداء لا يُحتاج إليه أبداً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : عسى المأمون يا بُنَىَّ أن يكون مصيباً فى أيامه ، ولكنك تعلم أننا نعيش فى أيامٍ شَحَّ فيها الغِذاء ، وقَلَّ فيها الدواء ، وانتشر فيها الداء . وأَخْلِقْ بِمن بقى من الإخوان أن يكونوا كما بقى لنا من الحياة : جوعٌ لا يدفعه غِذاء ، وداءٌ لا يَشفيه دواء .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وإذاً ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وإذاً فاعْمَلْ صالحاً ، وانتظر الجنة التى وَعَد الله عبادَه الصالحين ، والتى لا يُحْرَمُ

أهلُها غِذاءٍ ، ولا يشكون داء ، ولا يلتمسون دواء ، ولا يَعْدَمون أخًا وفيًّا ، وصديقًا رضيًّا ، وخليلا صفيًّا .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وإلى أن أدخل الجنة إن أتيح لى دخولها ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فاتْلُ قولَ الله عزّ وجلّ

« وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

ذوق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إنكم لتعلِّموننا من العلم ما يُفْسِدُ علينا الذَّوْقَ والحُكْمَ جميعاً .

قال الأستاذ الشيخ وهو يبسم لتلميذه الفتى : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ذاك أنى قرأت بيتاً كان طبعى خليقاً أن يُعْجَبَ به ، لولا أنكم تُعَلِّموننا الشكَّ وسوء الظن ، والبحث عن الأسباب التى تدعو الشاعر إلى أن يقول ، والكاتب إلى أن يكتب . فلما قرأت هذا البيت من الشعر وهمّ طَبْعى أن يرضَى عنه ويُعْجَبَ به ويُطيل تعمُّقه والتفكير فيه ، سألت نفسى كما علَّمتمونى أن أسألها : ألاَ يمكن أن يكون مصدر هذا البيت رَغَبًا أو رَهَبًا أو حسداً ، فأدركنى فتور الهِمّة وكَلالُ الحَدّ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما هذا البيت ؟ !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : « هو بيتٌ قاله رجلٌ من ذوى الرأى كان يُرَدُّ دائمًا عن باب الحجّاج :

أَلاَ رُبَّ نُصْحٍ يُغْلَقُ البابُ دُونَهُ
وغِشٍّ إلى جَنْبِ السرير يُقَرَّبُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما عليك أن يكون مصدرُ هذا البيت رَغبًا ، أو رَهبًا ، أو حسداً ، أو غير ذلك من عواطف الشرّ والخير ! أتُراك تُعْرِض عن الزهرة الجميلة ، والوردة النَّضرة ، والعُشْب ذى الرُّواء والبهجة ، حين تعلم ما يَتّخذ البستانىّ من الوسائل إلى استنباتها وجعلها زينةً للحياة ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فاسْتَمْتِعْ بالأدب ، وتعمَّقْ مَعَانِيَه ، وذُقْ جمالَه ، كما تستمتع بالحديقة ، واجْعَلْ بحثك عن التاريخ الأدبى كبحث أستاذ الزراعة عن أصول الزهر والشجر ، لا يصرفك عن المُتْعَة ،

ولا يُزَهّدك فى اللّذة ، ولعله أن يُغريك بهما ، ويرغّبك فيهما . أليس من الرائع أن يُخْرِجَ الله الحَىّ من الميّت ، والجميلَ من القبيح ! !

معارضة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إنى أقرأ فى عيون الأخبار لابن قُتَيْبَةَ أن عمرو بن عُبَيْدٍ مرّ بجماعة عُكُوفٍ ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : سارقٌ يُقْطَعُ . فقال : لا إلٰهَ إلاّ الله ، سارق السرّ يقطعه سارقُ العَلانية . فهل تُنبئنى إلامَ أراد ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان عمرو بن عُبَيْد زعيماً من زعماء المعتزلة ، وكان زاهداً فى الدنيا مخلصاً للدين ، وكان شجاعاً لا يخشى فى الحق لومة لائم ؛ وما أراد بقوله هذا إلا أن يصف عاملَ البَصْرة ، بأنه كان سارقاً لأموال المسلمين ، يَسْرِقها جهرةً لأنه لا يخاف أحداً ، منافقاً فى إمضاء حكم الله ، يعاقب على إثمٍ يَسيرٍ يستخفى به صاحبه ، وهو يقارف أعظم الآثام وأضخمها . فإن اجتمع لك زهد عمرو بن عبيد فى

الدنيا وحِرْصَه على الدين وشجاعته على مواجهة الحكام بما لا يحبون ، فانهَضْ بتَبِعَاتِ السياسة ، وإن لم تجتمع لك هذه الخصال فالْتَمِسْ لنشاطك سبيلاً أخرى .

معارضة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وإنى أقرأ فى كتاب عيون الأخبار لابن قُتَيْبَةَ أن طارقاً صاحب شُرْطة خالد القَسْرِىّ مرّ بابن شُبْرُمَة وطارق فى موكبه ، فقال ابن شُبْرُمَة :

أراها وإن كانت تُحَبُّ كأنّها
سحابةُ صَيْفٍ عن قريبٍ تَقَشَّعُ

اللهم لى دينى ولهم دنياهم . فاستُعْمِل ابن شُبْرُمَة بعد ذلك على القضاء ، فقال له ابنه : أتذكر يوم مرّ بك طارق فى موكبه وقلتَ ما قلت ؟ فقال : يا بُنَىَّ ، إنهم يجدون مثل أبيك ولا يجد مثلهم أبوك . إنّ أباك أكل من حلوائهم وحطّ فى أهوائهم . فهل تُنبئنى بمغزى هذا الحديث ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : مغزاه يسيرٌ كلّ

اليُسْر ؛ فقد كان ابن شُبْرُمة كغيره من أخيار الناس الذين لا تطيب أنفسهم عن متاع الدنيا ؛ فعارض السلطان لأنه كان طامعاً فى بعض ما عنده ، فلما وُلِّىَ القضاء رضى على السلطان وسخط على نفسه : رضى على السلطان لأنه ولاّه ، وسخِط على نفسه لأنه لم يستطع أن يصبر على الحرمان .

ورحم الله ابن شُبْرُمة ! فقد كان له من الشجاعة حظٌّ حسن حين اعترف لابنه بأنه أكل من حَلْوائهم وحط فى أهوائهم ؛ لأنه إن لم يستجب لهم حين دَعَوْه وجدوا غيره ممن يلى القضاء مكانه ، أمّا هو فلن يجد غير السلطان قوة تولِّيه القضاء .

فوازن يا بنىّ بين شجاعة عمرو بن عُبَيْدٍ الذى أيأس نفسه من السلطان فانتهى بمعارضته إلى غايتها ، وشجاعة ابن شُبْرُمة الذى أطمع نفسَه فيما عند السلطان ، فانتهى بشجاعته إلى أن تَمَثَّل بيتاً من الشعر .

معارضة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى فلان يطالب بالجلاء السريع متى وَضعت الحربُ أوزارها فى أوربا ! .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إلى أن يلى الحكم أو يُشارك فيه .

معارضة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وثب فلان أمس من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يئس من رضا الحكام فابتغى رضا الشعب .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم يكن يقال لا معنى لليأس مع الحياة ولا معنى للحياة مع اليأس !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن مُدَّتْ له أسباب الحياة ودعاه الأمل إلى يمين ، فوثبةٌ أخرى تردُّه من رضا الحكام إلى ما يريد . وما دام الإنسان قادراً على أن يذهب ويجىء فلا جناح عليه فى أن يذهب ويجىء .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : والمبدأ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : المبدأ وسيلة لا غاية .

وصف

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إنى أقرأ فى كتاب الكامل للمُبَرِّد أن النبى (صلعم) قال للأنصار فى حديث جرىء «إنكم لَتكثُرُون عند الفزَع وتَقِلُّون عند الطَّمَع» فما أدرى أى الأمرين أبلغ أثراً فى النفس : أخلاق الأنصار هذه أم وصف النبى لها !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كلاهما رائق رائعٌ يملأ النفس إعجاباً وحبًّا . ولكن خلَفَ بعد الأنصار خَلْفٌ يكثرون عند الطمع ، ويقلّون عند الفزع ، وانظر حولك فسترى ما يملأ النفوس من ذلك روعةً ورَوْعا .

عقوق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا تحدِّثنى عن سِنِمّار هذا الذى كثُر الحديث عنه فى هذه الأيام مَنْ هو ؟ وما شأنه ؟ وفيم يُكْثِرُ الناس عنه الحديث ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : « زعموا يا بنىّ أنه رجلٌ رومىٌّ بَنَى للنعمان بن المنذر قصراً أو قصرين لا أدرى ، فلما أتمَّ عملَه على أحسن وجه وأكمله ، رضى النعمان عنه ، ولكنه أشفق أن يبنى لغيره من الملوك مثل ما بنى له ، فأمر به فأُلقى من أعلى القصر فاندقّت عنقه فمات . والناس يضربونه مثلاً لمن يقدِّم إلى الناس خيراً وإحسانا فيجزونه بالشرّ والمساءة . ولكنّ فى الدنيا أفراداً كثيرين يمكن أن يسمَّى كل واحد منهم سِنِمّار ، ولكنه يُلْقَى من حالقٍ فلا تندقّ عنقه ، ويساق إليه الشر فلا يؤذيه ، ويُكاد له الكيدُ فلا يبلغ منه شيئاً ، تستطيع أن تسميه سِنِمّار الخالد ؛ لأنه لا يبنى لأصحاب السطوة والبأس ،

وإنما يبنى للشعوب ، ولأنه لا يبنى للشعوب دوراً ولا قصوراً ولا شيئاً من هذه الآثار التى يَبْلُغُها البِلَى ويُدركها الفناء ، وإنما يبنى لها فنًّا وأدباً وفلسفةً وعلماً وإصلاحاً . ألا تذكر مصارع النابغين من الأُدباء والعلماء والفلاسفة ؟ ألا ترى أنك لا تزال تستمتع بآثارهم ؟ » .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وسيستمتع الناس بعدنا بآثارهم حتى يَرِثَ الله الأرض ومَنْ عليها .

فن

قال شهريار ذات يوم لزوجه شهرزاد : تعلمين أنّى لم أفهم بعدُ لماذا قَطَعْتِ عنى قَصَصَك الجميل !

قالت شهرزاد : لأمرين يسيرين ، أحدهما أنى أخذت فى هذا القصص لأحْقِنَ دمى وأعصم نفسى من الموت ، وأصرفك عن سفك الدماء ، وقد بلغتُ من هذا كله ما أُريد . الثانى أن الجهد الفنىّ ممتعٌ حقًّا إذا نشأ عن الرغبة والاختيار ، بَغيضٌ حقًّا إذا نشأ عن الرهبة والإكراه . وقد أخذت نفسى بما تكره ما دعت إلى ذلك الضرورة . وقد آن لى أن آخذ بحظى من الحرية ، فلا أقصّ إلا حين أريد أنا ، لا حين تريد أنت ، ولا حين تريد الظروف .

خصام

قال شهريار ذات يوم لزوجه شهرزاد : تعلمين أنك مخطئة حين تُقَدِّرين أنى سَلَوْتُ عن سفك الدماء ، وأنك مخطئةٌ حين تظنّين أنك حَقَنتِ دمك فلا يراق ، وعصمت نفسك فلن تُرْهَقَ ؛ وإنى لأحسّ شيئاً من الظمأ إلى الدم ، وأخشى أن يكون دمك أول ما يُرْوِى ظَمَئى .

قالت شهرزاد : إن كنت إنما تخوّفنى بذلك لأعاود القصص ، فلن تبلغ مما تريد شيئاً ؛ لأن الخوف إن أنتج الفن مرة فلن ينتجه مرتين . وإن كنت جادًّا فى هذا النذير فَرِوِّ ظمأك وانقَعْ غُلَّتك ؛ فلن يدلّ هذا إلاّ على أن علّتك أعضل من أن يشفيها الفن . ولست أكره أن يكون دمى أول ما يُروى ظمأك ؛ فقد تجد

من الندم ما يشفى هذه العِلّة التى عجز الفن عن شفائها . وأنت بعدُ مُخيَّرٌ بين أن تصبر على هذا الظمأ البغيض فتصبر على ما تكره ، وبين أن تَنقَعَ هذه الغُلَّة فتُضْطَرَّ بنيـــك إلى اليُتْم وتُظْمِئهم إلى دمك .

قال شهريار : فإن قتلتك وقتلت بنيك أيضاً ؟

قالت شهرزاد : إذاً تصبر على الثكل حتى تلتمس الرِّىّ لظمئك فى دمك ، فتُغْمِدَ فى صدرك الخنجر الذى تريد أن تُغمده فى صدورنا .

قال شهريار وقد ظهر عليه رَوْعٌ شديد : حِجْراً محجورا .

موعظة

قالت شهرزاد ذات يوم لزوجها شهريار : تعلم أنّى لم أفهم بعدُ لماذا لم تكتف بالانتقام من زوجك التى خانتك ، فأردت أن تنتقم من النساء جميعًا .

قال شهريار : « إنها الفتنة ! واقْرَئى إن شئت قولَ الله عزّ وجلّ :

« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً . »

قالت شهرزاد : ليتك قرأت هذه الآية وتدبَّرْتها قبل أن تقترف ما اقترفت من آثام !

قال شهريار : لقد تغيّرْتِ وصرتِ إلى حالٍ لم أكن أرتقبها منكِ . قد كنتِ تسلّيننى بالقَصَص ،

وتُلهيننى بحلو الحديث ؛ فأنت الآن تُحاسبيننى على ما قدّمت ، وتؤنّبيننى بالوعظ المرّ .

قالت شهرزاد : لأن السلوّ عن الإثم لا يكفى لمحوه ، وإنما الندم وحده هو الذى يطهّر القلوب ويهيئ النفوس للتوبة النَّصُوح .

تجنٍّ

تلقَّاهم من المدارس الثانوية لا يحسنون شيئاً ، فتعهَّدهم حتى أحسنوا أشياء كثيرة ، وحتَّى ظفروا بما يظفر به الشباب الممتازون فى الحياة الجامعية من درجات وألقاب .

ثم تعهدهم حتى اطمأنّوا فى الحياة إلى ما يحبون .

وكانوا لهذا كله ذاكرين شاكرين ، وكانوا من هذا كله متزيدين ، حتى لم يجدوا سبيلاً للمزيد . ثم ازوَّر عنه السلطان فازوّروا عنه ، وقالوا : جفوتنا حين كان يحسن أن تصلنا .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أعرف أنهم لقوا منك جفاءً أو إعراضاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ليس المهم أن تعرف أولا تعرفَ ، وإنما المهم أن تعلم أن كلمات التجنِّى والتعلل والتكلّف لم توضع فى اللغة عبثاً ، وإنما وُضعت لتدلّ على معانٍ . والمعانى لا تقوم بأنفسها ، وإنما تقوم بأنفس الناس » .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : « أليس قد علَّمنا المعلِّمون فى الكتاتيب أن الإمام الشافعى كان يقول من علَّمنى حرفاً صِرْتُ له عبداً ! »

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : « بلى ! ولكن الحياة قد علَّمتنا أن الضرورات تبيح المحظورات . ومن المحظورات أن تجفو من جفاه السلطان ؛ فقد تصدّك صلته عن بعض ما تحب ، وتصرِف عنك بعض ما تتمنَّى .

نعمة مضيعة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لَمْ تتقدّم بى السن بعدُ ، ولكنى أرى الناس بين رجلين : أحدهما يُحْسِن ويُدِلّ بإحسانه على الناس ، والآخر يتلقَّى الإحسان ويجحد حقَّ من أهداه إليه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نعم ! وتضيع النعمة بين مانٍّ بها وكافرٍ لها .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فما تُحِبَّ لى أن أكون من ذلك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : مكان مَنْ إذا أحسن نَسِى إحسانَه ، وإن أُهْدِى إليه الإحسان لم يَنْسَ أنَّ عليه دَيْنًا يجب أن يؤدَّى . والخيرُ أن تَدِينَ وألاّ تُدَان .

غرور

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وإنى أقرأ فى كتاب عيون الأخبار لابن قُتَيْبَة : وَلِىَ عبد الرحمن بن الضحّاك ابن قيس المدينة سنتين ، فأحسن السِّيرةَ ، وعفّ عن أموال الناس ، ثم عُزِل ، فاجتمعوا إليه ، فأنشد لدرّاج الضّبابىّ :

فَلاَ السِّجْنُ أبكانى ولا القَيْدُ شَفَّنِى
ولا أنّنى من خَشْيةِ الموتِ أَجْزَعُ
ولكنَّ أقواماً ورائى أخافُهم
إذا مُتُّ أن يُعْطوا الذى كنتُ أمنع

ثم قال : والله ما أَسِفْتُ على هذه الولاية ، ولكنى أخشى أن يلى هذه الوجوه من لا يرعى لها حقَّها . فما تأويل هذا الكلام ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كلامٌ يقوله كل من كان يلي أمراً ثم عُزل عنه . فكل الناس يرى أنه أقدر من غيره على تدبير الأمور . وعسى أن يكون عبد الرحمن ابن قيس صادقاً . ولكن تَتَبَّع الآن مَنْ يُوَلَّوْن ويُعْزَلون فستسمع منهم مثل مقالة عبد الرحمن بن قيس .

غرور

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أقرأت كتاب فلان إنه ينبئنا بأنه استردّ حرّيّته ليملأ الأرض حبًّا وسلاما ، بعد أن مُلئت بغضا وخِصاما ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نعم ! وقد صدق المُتَنَبِّي حين قال :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَه
رأى غيرَه فيه ما لا يَرَى .

غرور

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إذا صُرِف فلانٌ عن السلطان لم يُرَ إلَّا حزيناً بائسًا ، فإذا رُدّ إليه لم يُرَ إلَّا سعيداً موفورًا .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنه يرى نفسه حاكماً بالطبع ، ولم يقرأ قولَ الله عزّ وجلّ :

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »

وجوم

مال إلىّ صاحب يسألنى : أقرأت هـذا الفصل ؟

قلت : نعم ! .

قال : مَنْ كاتبـه ؟

قلت : لا أدرى ؛ لأنه لم يُعْلِنِ اسمَه .

قال : ومع ذلك فقـد رضى أن يوصف بهذه الأوصاف التى تتملّق الغرور .

قلت : ذلك شأنه .

قال صاحب لنا : ماذا يُسِرُّ أحدكما إلى صاحبه ؟

قلت : لا يُسِرّ أحدٌ منّا إلى صاحبه شيئاً .

قال صاحبى : إنما نتحدث عن هذا الفصل الذى كتبه كاتب يوصف بالامتيـاز ، ولكنه لا يسمّى نفسه ، ولا يسمّيه ناشر هذا الفصل .

وأخذت الجماعة كلها تَعْبَث بهذا الكاتب الذى امتاز فى رأى نفسه وفى رأى ناشره ، ولكنه لم يجد الشجاعة عَلَى أن يسمّى نفسه ، ولم يجد ناشره الشجاعة على أن يسمّيه . ولم يكن الفصل سياسة ولا شيئاً مما يخاف ، وإنما كان أدباً أو شيئاً يشبه الأدب . فلما ملأت الجماعة أفواهها بنقد هذا الكاتب وعيبه والاستهزاء به والنَّعْى عليه ، تبين لها أنه قد يكون جالساً بينها . هنالك سُقِطَ فى أيدى القوم ، وأدركهم وُجُوم كاد يطول لولا أن صاحب المجلس قال : سبحان الله !

فتفرّق القوم ، ومنهم من يستحيي ، ومن لا حظَّ له من حياء .

تضليل

لم أرَ قطُّ شيئا أجملَ ولا أشدَّ روعةً مما رأيت اليوم : رأيت نفراً عُرِفوا بذكاء القلوب ، ورجاحة الأحلام ، وامتياز العقول ، قد كذَبوا على الناس فلم يُصَدِّقهم أحد ، ولكنهم ألحّوا فى الكذب حتى صدَّقوا أنفسهم ، ثم خدعوها بالغرور والأوهام ، ثم ابتهجوا بهذا الانخداع ، فكانت وجوههم مشرقة وثغورهم باسمة ، وألسنتهم منطلقة ، بما يصور النصر المؤزّر ، والفوز المبين . وكان الناس الذين لم يؤمنوا لهم ولم يصدِّقوهم يضحكون من هؤلاء الأساتذة المخنكين الذين أرادوا أن يُضِلّوا غيرهم فأضلّوا أنفسهم .

قطط

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لى صديق يحب القطط ويطيل عشرتها ، وأكاد أعتقد أنه اكتسب من أخلاقها شيئاً غير قليل .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن عشرة الحيوان للناس تعلمه الأنس بعد التوحش ، وتكسبه غير قليل من خصال الحضارة . فما يمنع أن يتأثر الناس بالحيوان كما يتأثر الحيوان بالناس ! وقد قال الشاعر القديم :

« عَنِ الْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ »

فإذا كان القرين قطًّا فأحرى أن يكتسب المرء أخلاق القطط .

قصور

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أليس عجيباً أن تَحْدُثَ الحوادث ، وتُلِمَّ الكوارث ، ويصطرع العالَمَ هذا الصراع العنيف ، ونحن مَعنيون بصغائر الأمور ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإنَّ المتنبّي لم يُخطىء حين قال :

على قَدْرِ أهلِ العزمِ تأتى العزائمُ

ولو استطعنا أكثر من ذلك لفعلنا .

تكريم

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كيف تجتمع الصفوة الممتازة من المُثَقَّفين لتكريم كاتب يُحْسِن الخطأ أكثر مما يُحسن الصواب ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن هـذه الصفوة تكرِّم اسمَ شخص تعرفه لا مؤلف كِتَابٍ لم تقرأه .

غيبة

قال أحد الأدباء لبعض زملائه : ألا تعجبون لفلان هذا الذى صار صديقاً للناس جميعاً !

قال أحد الزملاء : أخشى ألا يكون صديقًا لأحد لأن رضا الناس جميعًا شىء لا ينال .

قال الآخر : أخشى أن يكون عدوًّا للناس جميعًا وألا تكون صداقته إلّا لونًا من المداراة والرياء .

قال ثالث : أخشى ألّا يكون صديقًا إلّا لنفسه ، يحتمل فى إرضائها كل مشقة ويتكلف فيه كل عناء ، ومن ذلك تودده لمن يسيغ ومن لا يسيغ من الناس .

وكنت حاضر هذا المجلس ، فلما سئلت فى ذلك تلوت قول الله عز وجل :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ . »

ظلم

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما حديثٌ سمعتــــه منك صباحَ اليوم ، فلم أفهم منه شيئاً !.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : سمعتك تتحدَّث عن الظلم المُرّ ، والظلم الحلو ، والظلم الذى يجمع بين الحلاوة والمرارة ، فلم أفهم عنك .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإنَّ الظلم مُرٌّ فى قلب المظلوم حين يمسّه ، حلوٌ فى قلب الظالم حين يصدُر منه ، وهو حلوٌ ومُرٌّ فى قلوب العاشقين حين يتقارضون الظـلم ويجنى بعضهم على بعض جنايات الغـرام .

رجوع

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم يكن فلان شريكَ فلان فيما نقض وما أبرم من هذا الأمر ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : بلى ! وكان يلتهب حماسةً لِما شارك فيه من نقض وإبرام .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فما باله الآن يُبْرِم ما كان نَقَضَ ، وينقض ما كان أبرم ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن للضرورات أحكامَها ، ولأنّ الرجوع إلى الباطل أنفع وأجدى من التمادى فى الحق .

رعية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : قرأت فى بعض الكتب أن المنصور قال لبعض قواده : صَدق الذى قال : « أجِعْ كَلْبَك يَتْبَعْك ، وسمِّنه يأكلك . فقال له أبو العبّاس الطُّوسى : أما تخشى يا أمير المؤمنين إن أجعْته أن يُلَوِّح له غيرُك برَغيف فيتبَعه ويَدَعَك » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : عفا الله عن المنصور وجليسه ! فقد شبَّها الناس بالكلاب ، واللهُ عزّ وجلّ يقول :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . »

رعية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو أن المنصور الذى ضرب الكلب مثلاً لرعيّته وضع الأسد موضع الكلب ، فكيف كان يقول ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان يقول أجِعْ أسَدَكَ يأ كُلْكَ ، وكان ذلك أحرى أن يغيِّر رأيه فى الرعيّة وسياسته لها ، فيقيم الأمر بينه وبين المسلمين على الهيبة والحب ، لا على الازدراء والإغراء .

رعية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو أن المنصور الذى ضرب الكلب مثلاً لرعيّته لم يُشَبِّه رعيّته بالكلاب ولا بالأسود ، وإنما أخذها كما خلقها الله ناساً من الناس ، فكيف كان يقول ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان يقول : أَنْصِفْ شَعْبَكَ يُحْبِبْكَ .

رعية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كيف يُسَمَّى الشعبُ رعيّة وقد أصبح مصدرَ السلطات بنص الدستور ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هو رعيّة نفسه بعد أن صار السلطان إليه . وما أكثر الكلمات العتيقة التى تَفْقِدُ معانيها الأولى وتستبقيها الشعوب مع ذلك لتدل بها على معانٍ جديدة ، فينشأ عن ذلك كثير من التخليط ! .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وتصدِّق أن الشعب يعتقد أنه سيّد نفسه ، وأنه مصدر السلطات وأنه بذلك هو الراعى ، وهو الرعية ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : بذلك يحدّثه الدستور، وهو إن لم يصدِّق الدستورَ اليوم ، فقد يصدقه غدا .

رمز

قال شهريار ذات يوم لزوجه شهرزاد : ألم تقرئى كليلةَ ودمنة؟

قالت شهرزاد : بلى ! قد قرأته وقرأته .

قال شهريار : فَلِمَ لم تذهبى فى بعض قصصك من الرمز والإشارة مذهب بَيْدَبا الفيلسوف ؟

قالت شهرزاد : لأنك لم تذهب فى التماس القصص مذهب دَبْشِليم الملك ، كان يطلب الحكمة يغذو بها قلبَه وعقله ، فأدَّى إليه فيلسوفه من ذلك ما أراد . وكنتَ غارقاً فى بحر من الدم ، فاستنقذتُك من هذا الغرق بما وجدت من وسائل الإنقاذ . ولو أنى انتظرت حتى أبرم لإنقاذك أسباباً من الحرير لكان من الممكن أن تذهب بك أمواج الدم ، وأن ألتمسك فلا أجد إليك سبيلا .

غيرة

قال أحد الأدباء لبعض أصحابه : أتدرى لم مات فلان ؟

قال صاحبه : لا !

قال الأديب : زعموا أن فلاناً غلبه على قلبِ من أحبّ .

ثم مضت أسابيع والتقى الصديقان ، وهمّ أحدهما أن يقول لصاحبه شيئاً ، ولكنه أمسك عن القول لأنه ذكر أن الغيرة قد تقتل الناس أحياناً .

مجون

ما زالت امرأته تُظهر له الغَيْرَة حتى أغرته بالإثم فتورّط فيه . وما زال هو يلوم ابنه على العبث حتى دفعه إليه . وما زال ابنه ينهى صاحبه عن عشرة خليلة السَّوْء حتى اتخذها له زوجا . أليس من الخير أن يتدبَّر الناس مجون أبى نُوَاس حين قال :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فإنّ اللّوْمَ إغراء

فرُبَّ مجونٍ أدنى إلى الموعظة من الحكمة البالغة .

تلطف

سئلتْ : أىُّ المصريين أحبُّ إليها وآثَرُ عندها وأحقّ بإعجابها ؟ فسمّت قوماً وأثنتْ عليهم بما عسى أن يكونوا أهلاً له . ولو قد زارت مصر فى وقت آخر وأُلْقِىَ عليها السؤال نفسه لسَمَّتْ قوماً آخرين وأثنتْ عليهم بما عسى أن يكونوا أهلاً له . فهى لا تثنى على أُولئك وهؤلاء ، وإنما تَتَلَطَّفُ للسلطان . فأحرى ألاَّ تُلْقَى مثل هذه الأسئلة على الأجانب ، لولا أنَّ حاجة المصريين والضعفاء منهم خاصة إلى الثناء تكلِّفهم وتكلِّف غيرهم شططا .

هجرة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : عَـــرَض علينا « چوڤينال » عرضاً رائعاً الأسباب التى دفعتـه إلى الرحيل عن روما ، وكلها يرجع إلى فساد الحياة العقلية والاقتصادية ، وإلى بطر الأغنياء ، وبؤس الفقراء ، واضطراب الأمن . ألاَ ترى أننا فى حاجة إلى چوڤينال يفصِّل لنا الأسباب التى تدفعنا إلى ترك القاهرة ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : تريد أن تقول الأسباب التى تدفعنا إلى ترك مصر ؟ ولو قد ذهبت إلى غير مصر من أقطار الأرض لاحتجت إلى چوڤينال ، يفصِّل لك الأسباب التى تدفعك إلى تركه .

فَاقْنَعْ بما قَسَمَ المليكُ فإنّما
قَسَمَ الخلائقَ بيننا عَلّامُها

كما يقول لبيد . وإذا احتجت إلى چوڤينال ليفصّل لك أسباب الهجرة التى تشعر بالحاجة إليها فأَنْشِدْ قول أبي العلاء :

وهل يَأْبقُ الإنْسانُ من مُلْكِ رَبِّهِ
فَيَخْرُجَ من أرْضٍ له وسَمَاءِ

هجرة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم يقل شاعر قديم :

وفى الأرض مَنْأًى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذَى
وفِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ

أو لم يقل شاعر آخر :

لَعَمْرُكَ مَا فِى الأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى امْرِئٍ
سَرَى رَاغِباً أَوْ رَاهِباً وهو يَعْقِلُ

أو لم يقل بَشَّارٌ :

إِذَا أَنكرتْنِى بَلْدَةٌ أَوْ نَكِرْتُهَا
خَرجتُ مع البازِى عَلَىَّ سَوَادُ

أو لم يقل المتنبى :

مَا مُقَامِى بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلاَّ
كَمُقَامِ المَسِيحِ بين اليَهُودِ
أَنَا فِى أُمَّةٍ — تَدَارَكَهَا اللَّـ
ـهُ — غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فى ثَمُودِ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنك لكثير الرواية منذ اليوم ، فما ذاك ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ذاك أن إقامة الرجل الكريم على الضَّيْمِ الذى لا يرضاه لا تعجبنى .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإنْ كان الرجل الكريم يُحِبُّ وطنَه ويُؤْثِر الجَهْدَ والعناء فيه على الراحة والرضا فى غيره من الأوطان ؟ واقرأ إن شئت قول الشاعر القديم :

لَعَمْرِي لَقَوْمُ المَرْءِ خيرٌ بَقِيَّةً
عليه وإن عالوا به كلَّ مَرْكَبِ
من الجانب الأقصَى وإنْ كان ذَا غِنًى
كَثِيرٍ ، ولم يخبِرْكَ مِثْلُ مُجَرَّبِ

تصوير

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا أعرف شيئًا أبْرَعَ، ولا أبلغَ ، ولا أدَقَّ فى تصوير بؤس البائسين ، وثراء المُثْرِين ، والتفاوت المخزى بين الطبقات من هجاء « چوڤينال » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ألاَ أدلّك على شىء هو أبرع ، وأبلغ ، وأدقّ تصويراً لذلك من هجاء « چوڤينال » ! أنْظُرْ إلى حياة المصريين .

رقيّ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بالُ عَظَائمِ الأُمور تُسْنَدُ إلى قومٍ لا يَعْقِلونها ، ولا يَقْدِرون على النهوض بها ، ولا بأيسر منها ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن السياسة كالطبيعة لها حكمةٌ لم تستطع عقولُ الناس أن تفهم حقائقها بعدُ . .

رقيّ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بالُ الذين تُعْجِزُهم صغائر الأعمال يُكَلَّفُون النهوضَ بعظائم الأمور ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنهم خُلقوا للعظائم ، وخُلِق غيرُهم للأمور اليسيرة .

رقى

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أعرف قوماً يُكَلَّفُونَ يَسِيرَ الأمر فيُخْفِقُون ، ويَرْقَى بهم ذلك حتى يُكَلَّفوا جليلَ الأمر !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذة الفتى : هؤلاء قومٌ يَرْقَى بهم العَجْزُ حين يَقْعُدُ بهم الإعجاز .

رقى

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : يقول الطُّغْرائىّ فى لاميّته المشهورة :

أُرِيدُ بَسْطَةَ كَفٍّ أَسْتَعِينُ بها
على قَضَاءِ حُقُوقٍ للعُلاَ قِبَلِى

فما عسى أن تكون هذه الحقوق التى لا يستطيع صاحبُها أن يؤدِّيها إلى العلا إلا أن يكون كثيرَ المال ، عظيمَ الثراء ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنها تختلف باختلاف المِزاج ؛ فمن الناس من يرى أن من حق العُلاَ عليه أن يُطْعِمَ الجائع ، ويكسوَ العارىَ ، ويُرْوِى الظمآن ، ويعلِّم الجاهل ، ويُعين المريض على التماس الطِّبِّ لعِلَّته . ومن الناس من يرى أن من حق العُلاَ عليه أن يَغْشَى حاناتِ اللَّهْو ، وأندية القِمار . وهؤلاء أحْرَى أن يكثروا ، وأجدر أن يَظفَروا من العُلاَ بما يريدون .

رقى

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألَمْ نكن نُلَقَّنُ فى نَضْرة الصِّبَا أن من طلب العُلاَ سَهِرَ الليالى ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ذلك حين تكون العُلاَ غاليةً بعيدة المَنَال . فأمَّا حين تَرْخُصُ فإنها تُنال بأيْسَرَ من سَهَرِ اللَّيالى .

قال الطالب الفتى : وما ذاك ؟

قال الأستاذ الشيخ : إسداء الثناء إلى غير الأكفاء ، وإهداء الهِجاء إلى ذوى الغَنَاء ، وقذفُ المُحْصَنَاتِ والخوضُ فى الأعراض بغير الحق ، وجَفْوَةُ الصديق ، وخيانة الخليل .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وترى ذلك ثمناً يسيراً؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أيسر من الرمل على ساحل البحر ، ومن الماء على شاطىء النيل .

تعريض

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إلامَ أراد المُتَنبى حين قال :

إذا كان بَعْضُ النَّاسِ سَيْفاً لِدَوْلةٍ
ففى النَّاسِ بُوقاتٌ لها وطُبُولُ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنما أراد إلى أن « سيف الدولة » كان خليقاً باسمه ؛ لأنه كان يحمى ثُغور المسلمين من عُدوان الروم ، على حين كان قومٌ آخرون فى بَغْدَادَ يتكثَّرون بما لاغَنَاءَ فيه ولا طائلَ تحته : من هذه المواكب الفخمة التى كانت تَزْخَرُ بها عاصمة الخلافة .

ضحك

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا يَغيظُك قول المتنبي فينا :

يا أُمَّة ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِها الأُمَمُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما يَغيظُني مِن ذلك ؟ ! أسخط كافورٌ المتنبِّي ، فقال شرَّ ما عَلِم ، أرضاه فقال خَيْرَ ما عَلِم . وصدقَ رسولُ الله :

« إنَّ من البيَانِ لَسِحْراً و إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكَماً » .

ضحك

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أحق أن الأمم ضَحِكَتْ من جهلنا قديماً كما يقول المتنبِّي ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كما ضحكنا وكما لا نزال نضحك من جهل أُمَمٍ غيرنا .

انتصار

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما الذى يُعْجِبُ الناسَ من قول المتنبى :

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضٍ
طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزَالاَ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يُعْجِبُهم منه يا بُنَىَّ أنه يَعْرِض صورةً رائعة فى دِقَّتها وصِدْقها وإيجازها لحقيقةٍ إنسانيةٍ خالدة ، وهى أن شجاعةَ كثيرٍ من الشُّجْعان ، وانتصارَ كثيرٍ من المنتصرين ، وتفوُّقَ كثيرٍ من المتفوِّقين ليست إلا تكثُّرًا وغرورًا . فإذا جاء الخوف قَلَّ الشجاع وندر الانتصار ، وأصبح التفوُّق أُمنيّة لا تُنال إلا فى عسر شديد . وليتك تقرأ قصة « دون كيشوت » للكاتب الأسبانىّ « سرفنتس » ، وقصة « ترناران دى ترسكون » للكاتب الفرنسى

« الفونس دوديه » لِتَعْلَمَ أنّ هذين الكاتبين العظيمين لم يزيدا على أن شَرَحا قولَ المتنبّي :

وَإذَا مَا خَلَا الجَبَانُ بِأَرْضٍ
طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزَالاَ

ذوق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أليس مما يُعْجِب ويروق أن تُعْزَفَ مُوسِيقى « موزار » و « بتهوفن » ترويحاً للرفق بالحيوان ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وأىُّ غرابة فى ذلك وموسيقى « موزار » و « بتهوفن » تُعْزَفُ ترويحاً للرفق بالبائسين من الناس ! . وهل تختلف طبيعة البؤس حين يُلِمّ بالإنسان أو بالحيوان ! !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإنِّى أرى فى هذا العطف رَفعاً للحيوان إلى منزلة الإنسان .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وأنا أرى فيه نُزولاً بالإنسان إلى مرتبة الحيوان . ومَدَارُ الأمرِ كله على الذوق .

رفق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم أعلم أن الحكومة قد أصبحتْ أرأفَ بالحيوان من أبى العلاء ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ماذا تقول ! أتُراها حَرّمتْ ذَبْحه وأكْلَه ، وحَفِظتَ اللبن على البقر والشاء ، والبيضَ على الدَّجَاجَ ، والعسلَ على النحل ؟ !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا ! ولكنها أذِنَتْ فأقيمتْ ليلةٌ موسيقية ساهرة لمعونة الذين يرفقون بالحيوان .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لو خُيِّرَ الحيوان لاختار الحياة والعافية على الموسيقى والرقص .

إيثار

قال بعض الولاة لبعض جلسائه : إبْغِنِى رَجُلَ صِدْقٍ أرْكَن إليه فيما يَعْنينى من الأمر .

قال جليسه : وأين أنت — أصلحك الله — من فلان ! فإنه رجلُ صِدْقٍ ، ورجلُ حَزْمٍ ، ورجلُ عَزْمٍ ، ورجلُ عَدْلٍ .

قال الوالى : عَدِّ عنه ؛ فإنى أُوثر به نفسى ، وأركن إليه فى خاصّة أمرى . وبلغ الحديث فلانا هذا ، فقال :

وإذَا تكونُ كَرِيهَةٌ أُدْعَى لهَا
وإذا يُحَاسُ الحَيْسُ يُدْعى جُنْدبُ

وكان معه صديق فقال : إلى أىّ حدٍّ يستقيم للوالى أن يُؤْثِرَ نفسَه بك من دون المدينة ؟

قال فلان : أليس فى صلاحه صلاح المدينة ! !

نفع

قال أحد الأدباء لأحد أصحابه : لقد قطع فلان أسباب المودّة بينه وبين ذوى معرفته جميعاً إلاّ واحداً منهم .

قال له صاحبه : لعله ينتظر منه نفعاً ، فهو يستبقيه حتى يبلغ آخر ما عنده ، ثم يُلْحِقه بغيره من الناس .

كفاية

قال أحد الوزراء لبعض ثقاته : إنى أُريد أن أُوَلِّى فلاناً بعض العمل .

قال له صاحبه : نعم ! بشرط أن تُمْسِكه عندك وتُبيح له أن يستخلف على عمله مَنْ يستطيع أن ينهض به .

قال الوزير : وكيف كان ذلك ؟

قال صاحبه : لأن فلاناً يُحْسِنُ الانتفاعَ ، ولا يُحْسِن النفع .

رق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أَلاَ تُفَسِّرُ لى هذا الصِّراع الذى نحن فيه منذ أعوام طويلة ، والذى يُفْسِدُ علينا أمورَنا كلَّها ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذ الفتى : وماذا تريد أن أُفَسِّر لك ! إنه الصراعُ بين الحرِّية التى تريد أن يكون جنودها أبطالاً ، والمنفعةِ التى تُريد أن يكون جنودها أرقاء .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ومن أجل ذلك قَلّ أبطال الحريَّة وكثُر طلّاب المنفعة ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هو ذاك ! .

رسالة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألاَ تُنبئنى عن كلمة « الرسالة » هذه التى يلوكها كل إنسان حين يريد أن يعبِّر عن المهمة ؛ فللكاتب رسالة ، وللشاعر رسالة ، وللعالم رسالة ، ولصاحب السياسة رسالة أيضا . وما أعرف أن اللغة تؤدِّى بكلمة « الرسالة » هذا المعنى الجديد ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذه كلمة أذاعها فى لغتنا الحديثة مِزَاجٌ من الجهل والغرور : الجهل باللغة العربية ، والغرور الذى يخيِّل إلى كل إنسان أنه نبيٌّ قد أرسله الله برسالة يُعَلِّم بها الناس شيئا ، أو يُحْدِثُ بها فى الناس حَدَثًا . وإذا اجتمع الجهل والغرور على أمة ، دفعاها إلى أكثر من الخطأ اللّغوىّ واستعمال الألفاظ فى غير مواضعها .

جحود

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إنى أقرأ فى شعر «كاتول» اللاتينى : « لا تعمل خيراً ، ولا تنتظر شُكْرًا ، فقد عمّ الجحود وأصبح الإحسان هباء ؛ ماذا أقول ! بل أصبح ثِقْلًا ومصدرًا للضغينة . لقد بلوت هذه التجربة المُرّة حين رأيت أشد الناس حقداً علىّ وبُغْضًا لى مَنْ كان يرانى منذ حين مصدرَ نِعْمته وحاميه الوحيد » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لم تتغيّر أخلاق الناس منذ قال شاعرك اللاتينى هذا الشعر ، ولكنه صاحبُ عاجلةٍ لم يكن ينتظر من الآجلة شيئًا . أما نحن فقد أدَّبنا الله أدَبًا آخر ، واقرأ إن شئت قولَه عزّ وجلّ :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

استخارة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لن أشهد محاضرة عامّة بعد اليوم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : حجراً محجوراً . وما ذاك ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : سمعت اليوم محاضرة لم أسمع قطُّ أسخفَ منها ، ورحت إلى بيتى ضَيِّقًا بما سمعت . وأردت أن أخرج من هذا الضيق ، فلم أكد أنظر فى أول كتاب وقعتْ عليه يدى وكان ديوانًا لشاعر لاتينى ، حتى رأيته يصوِّر ضيق نفسه بهذه القراءات الأدبية العامة التى كانت تمتلىء بها روما فى عصره . فقلت : إنَّ الله قد خارلى وآذننى بأن من الحمق إضاعة الوقت فى الاختلاف إلى المحاضرات .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان شاعرك اللاتيني هَجَّاءً ، وكان يلتمس لنفسه المعاذير لِمَا كان يطرق من فن الهجاء . فأما أنت فطالب علم ، تستطيع أن تختلف إلى المحاضرات جيدِّها ورديئها ممتازها وسخيفها ؛ فإنك واجدٌ فيها بعض الفائدة ، تجدها فيما تسمع من المحاضر أحيانا ، وفيما ترى من المستمعين دائمًا .

معبد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد راقنى ما أرى من سخرية الشاعر اللاتينى « چوڤينال » حين يتحدث إلى المال بأنَّ من حقه أن يقام له معبد كتلك المعابد التى أقيمت للسلم والشرف والفضيلة : لأنَّ المال يتفوّق على هذه الخصال جميعاً . ما يمنع الناسَ أن يفكّروا الآن فى إقامة معبد للثراء ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أخشى ألاّ يجد الناس من الوقت ما يكفى لهذا التفكير فضلاً عن إقامة هذا المعبد ؛ فإنى أرى الشعوب قد أخذت تكفر بالمال وتخرج على سلطان الثراء .

تبذير

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كأنما كان الشاعر اللاتينى « چوڤينال » يصوِّر عصرنا حين تحدَّث عن هذا الغَنِيّ الذى تطيب نفسه عن مائة ألف درهم يُنفقها فى الميسر ، ويبخل بقميص يقى خادمه ألم البرد .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ما دام فى الأرض سادة يملكون مئات الألوف ، وخدمٌ لا يملكون شيئا ، وفُرَصٌ للّهو يُنْفَقُ فيها المال ، فكل العصور واحدة وإن طال الزمن .

هجاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أىّ فنون الأدب أحقُّ أن يزدهر وينفُقَ فى هذا العصر الذى نحن فيه ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا أدرى ! ولكننا فى عصر انتقال أشدّ فنون الأدب له ملاءمةً فن الهجاء .

رقابة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أَلاَ تَعْجَبُ معى بقول الشاعر اللاتينى « چوڤينال » :

« ما أرفقَ الرقابةَ بالغِرْبان وأعْنَفَها على الحمائم »

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن شاعرك اللاتينى لم يُرِدْ إلى رقابة المطبوعات ، وإنما أراد إلى رقابة الأخلاق. ومهما يُرِدْ فهو صادقٌ كل الصدق .

خادم

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم يُدْهِشْك ما قاله أحد الوزراء لبعض الصحفيين من أنه مستعدٌّ للعمل فى أىّ وزارة ، كأنه الخادم يكلِّفه سيده ما يشاء فَيَقْبَلُ غير متكرّه ولا متمنّع ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ومايُدهشك من ذلك! وإنما الوزير خادم الملك والشعب ، يضعانه حيث يشاءان، ويكلِّفانه ما يحبَّان .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ولكن الوزير من زينة الدولة !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : والخادم الأنيق من زينة البيت .

وعود

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألا يُعجبك قولُ الشاعر اللاتينى « كاتول » :

« إن خليلته تُقْسِم له على أنها لن تحبّ أحداً سواه ولو تقرَّب إليها كبير الآلهة ، ولكنه يرى وعود الخليلات مكتوبة على أجنحة الريح المنطلقة فى الجو ، وعلى صفحات الموج الهائم فى البحر المحيط » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كما يُعجبنى قول كَعْبُ بن زَهَيْر :

وما تَمَسَّكُ بالوعد الذى وعدتْ
إلاَّ كما يُمْسِكُ الماء الغَرَابِيلُ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وأىّ وعود الرجال أشْبَهُ فى ذلك بوعود النساء ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وعود الساسة حين يطلبون النيابة عن الشعب ، أو النهوض بأعباء الحكم .

نزاهة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أجملَ هذه الصورةَ التى أراها عند الشاعر اللاتينى « چوڤينال » حيث يقول :

« ما أكثر ما تُمْدَحُ النزاهة ، ولكنها على ذلك ترتعد من البرد » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وقد مُدِحتِ النزاهةُ أثناء القرون منذ شاعرك اللاتينى ، ولم تُمْدَحْ قطُّ فى عصر من العصور كما تُمْدَح فى هذه الأيّام ، ولكنها على ذلك مقرورة ترتعد من البرد !

تخليط

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يُخَلِّطُ فى كتابه عن حياة النبىّ (صلعم) تخليطا شديدا ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : عرض لما لا يُحسِنُ من الأمر ، وقال فيه بغير علم .

منفعة

كان يُبْغضه أشدَّ البغض ، فأصبح يتهالك عليه أشد التهالك ، وكان فصيحًا كل الفصاحة فى تعليل ما أظهر وأضمر من بغض ، وهو فصيح كل الفصاحة فى تعليل ما يظهر من تهالك وحب ، وهو يصدِّق نفسه فى الموقفين جميعًا . ولكن الناس لا يصدِّقونه ، وإنما يؤمنون بأنه أبغضَ للمنفعة وأحبَّ للمنفعة ، وبأن وحى النفوس يكذِب النفوس أحيانًا . والغريب فى هذا كله أن الناس أعلم منه بدخيلة النفس وسرّ الضمير .

أخلاق

أقبلوا يواسون مَنْ صُرِفَ عنه الحكم، وكانوا جماعةً ضخمة يكاد يمتنع فيها التنفس لولا أنها كانت تسعى أو تزحف تحت السماء فى الهواء الطلق وقد اكتظّت بها الشوارع والميادين، ووقفت لها حركة المدينة.

قال قائل لصاحبه: أليس فلان قد صُرِف عن الوزارة أو صُرِفتْ عنه الوزارة، فما هذه الجماعة الضخمة؟ وما هؤلاء الذين يسعون إليه اليوم وكانوا لا يرونه أمس ولن يروه غداً إلاّ نكثوا رءوسهم وغضّوا أبصارهم؟

قال صاحبه: صُرِف عنه الحكم اليوم وقد يُرَدُّ إليه غداً، وللناس آمال لا يحبّون أن تنقطع، وليس كل الناس يحب رغبةً أو رهبة؛ فقد يكون منهم من يحب مخلصاً فى الحب، ومن يجامل أو يواسى مخلصاً فى المجاملة أو المواساة.

قال ثالث : ومن الناس من يُبْغضك ولكنه يواسيك ؛ لأنه يريد أن يظهر لنفسه أن رجولته أكبر من البغض .

قال رابع : ومن الناس من لا يَكْبُرُ فى نفسه إلا إذا أظهر نفسه للناس كبيراً بعض الشىء .

قال خامس : عجبت للذين يشيِّعون الجنائز ويستطيعون أن يفكروا فى شىء غير الموت .

كساد

قال أحد الصديقين لصديقه فى بعض المحافل : ألا ترى إلى فلان يَلْحَظ صديقَه العزيز عليه ، الأثير عنده ، لحظاً خفيًّا ولا يحيّيه ! !

قال صاحبه : لأن رئيسه يرقبه من بعيد .

قال الصديق : وإذاً ؟ .

قال صاحبه : وإذاً فهو يشق من صديقه العزيز عليه ، الأثير عنده ، برحابة الصدر ، ويخاف من رئيسه ضيق الخُلُق .

قال الصديق : والشجاعة ؟

قال صاحبه : قد كسدت سوقها فى هذه الأيام .

عفة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أجملَ هذا البيتَ الذى يُنْسَب إلى عنترة :

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الوقيعـةَ أننى
أغشَى الوَغَى وأعَفُّ عند المَغْنَمِ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنه لجميل حقًّا ولا سيما حين يُنْشَرُ فى هذه الأيام .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فى هـذه الأيام ! كيف تقول ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ألستَ قد تعلّمت فى المدارس والجامعة أن الأشيـاء تتمايز بأضدادها ، وأن شاعراً قديمًا قد أنشد :

والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

ثعالب

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما هذه النواطير التى قصد إليها المتنبِّى فى بيته الوَقِح :

نامَتْ نَواطيرُ مِصْرٍ عن ثَعالِبِها
فَقَدْ بَشِمْنَ وما تَفْنَى العَنَاقِيدُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ما زال الحق عندكم وَقِحًا وقائلُه مسرفًا فى الجراءة . ولكن هذا لا يغيِّر من الحق شيئًا ؛ فقد نامت نواطير مصر عن ثعالبها ، وما زالت هذه الثعالب تأكل وتشرب حتى يُدركها البَشَم فلا يزيدها إلاّ نَهَمًا ، كأَنّ بطونها تلك الآنية التى أشارت إليها الأَساطير اليونانية والتى ليس إلى ملئها سبيل . فأما النواطير فسَلِ المتنبِّى عما أراد بها . أما أنا فأفهم منها الشعب ، وأظنك لا تنكر أن الشعب ما زال نائمًا .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو نام الشعب لما

أكلت الثعالب ما يُقيم أوَدَها فضلاً عن أن يضطرها إلى البَشم . ما زال الشعب يكدّ ويكدَح ، وما أعرف أن النائم يُحسن كدًّا أو كدحًا .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فقل إن شئت إن الشعب يقظان نائم : يقظان لأنه يعمل وينتج ، ونائم لأنه لا يجنى ثمار عمله من هذه الثعالب التى تأكل منها حتى تَبْشَمَ ، فلا يزيدها البشم إلاّ نَهَمًا .

فرار

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما هذا البيت الذى سمعتك تُنشده حين فرغتَ من صحف الصباح :

تَرَكَ الأحِبَّـة أن يُقاتِلَ دُونهُمْ
ونَجَا برأسِ طِمِـرَّةٍ ولجامِ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ألم تتعلَّم فى المدارس الثانوية أنه من شعر حسّان يقوله فى الحارث بن هشام حين شهد بدراً مع قُرَيْش ، فلما دارت عليهم الدائرة فرّ وترك الأحبة صَرْعى لم يقاتل دونهم وفيهم أخوه أبو جهل عمرو بن هشام ! وانظر حولك فسترى الذين يفرّون عن الأحبَّة حين يجِدّ الجِدّ كثيرين ، يدفعهم إلى الفرار الرَّغَبُ حيناً ، والرَّهَبُ حيناً آخر .

كيد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما هذا البيت الذى تُكْثر ترديدَه منذ اليوم :

وكَتِيبـــــةٍ لَبَّستُها بكتيبةٍ
حتَّى إذا الْتَبَسَتْ نَفَضْتُ لها يَدِى

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذا بيت قاله الفرَّار السُّلَمى، وكان رجلاً يُغْرَى بالحرب ، حتى إذا شبّ نارها وأذكى أُوارَها، لاذ بالفِرار وتَغَنَّى ببراعته فى الأَمرين جميعاً. وانظر حولك فسترى أن الذين يمكن أن تسميهم بالفرّار السُّلَمى كثيرون ، ولكنهم يفرّون ويفرّون ولا يتغنّون . تَبَلّدت قلوبُهم فلا تُحِسّ ، وانعقدت ألسنتهم فلا تنطق ، وأُشْرِبَت نفوسُهم حُبَّ الكيد الصامت ، فهى تكيد ولكنها لا تقول .

كيد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ماتأويل قول الشاعر :

إذا رَامَ كيداً بالصلاةِ مُقيمُها
فتاركُها عمْداً إلى اللهِ أقربُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : تأويله أن تارك الصلاة عمداً يعصى اللهَ معصيةً واحدة ، وأن مقيم الصلاة كيداً يعصى الله مَعاصِيَ كثيرةً ؛ يريد أن يخدع اللهَ واللهُ لا يُخْدَعُ . ويريد أن يخدع الناس ، وخِداع الناس إثمٌ . ويريد أن يتخذ الله وسيلة والله غاية الغايات ، وإليه تُبْتَغَى الوسائل . فكيف به إذا اتخذ الله وسيلةً لأعراض الدنيا وتضليلِ الناس ! صدق الشاعر :

إذا رام كيداً بالصلاةِ مقيمُها
فتاركُها عمداً إلى الله أقربُ

صفح

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إنى أقرأ فى بعض ما يقول « نِيتْشه » : أن كثيراً من الناس لا ينبغى أن تصافحهم بيدٍ رفيقة ، وإنما تبسط إليهم يداً كبُرْثُنِ الأَسد ، وأريد أن تكون فيها مخالب حادَّة . فمن عسى أن يكون هؤلاء الناس ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هم أكثر الذين تلقاهم مُصْبِحاً ومُمْسِياً ، فيلحظونك بعيون ملؤها الودّ ، ويَبْسِمون لك عن ثغور مشرقة رفيقة ومن ورائها الظامة والعذاب ، وهم الذين يُحسنون التودّد إليك والتلطف لك ولا سيما حين تَحْدُثُ الأَحداث وتُلِمّ الخطوب .

ولكن « نيتشه » يا بُنَىّ صاحب قسوة وسطوة وعنف ، فاقرأ إن شئت قول الله عز وجل : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذلكَ لَمِنْ عزْمِ الأُمُور » .

سخرية

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : قرأت فيما قرأت من شعر « كاتول » مقطوعةً يهيئ فيها نفسه للموت ، بل يحثّ فيها نفسه على الموت ؛ لأن فلاناً وفلاناً من مواطنيه قد رُقِيَا إلى مَنْصِبِ القُنْصُل . فأعجبتنى ؛ سخريته اللاذعة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كما أعجبنى قول الشاعر العربى :

تأهّبـــوا لِلْحَدَثِ النَّازِلِ
قد قُرِئَ الشـعرُ عَلَى كامِلِ

تقدير

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : مابال الناس يضطربون للتولية والعزل فى مصر أكثر مما يضطربون لهما فى البلاد الحرة الأخرى ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنهم مايزالون قُدماء العقل والشعور ، يرون فى التولية نعمةً وفى العزل نقمةً ، ويذكرون نكبة البرامكة وما يُشبهها من أحداث الدهر القديم. فانتظر بهم حتى يذوقوا طعم الديمقراطية الصحيحة ؛ فيومئذ سينظرون إلى التولية والعزل كما ينظرون إلى الجو والمطر .

ابتسام

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أليس يُعْجِبُك قول المتنبّي :

ولَمّا صار وُدَّ النّاس خِبًّا
جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسامٍ بابتسامِ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : بلى ! إنه ليعجبني كل الإعجاب ، ولا سيما حين يُنشده الذين يصوّرون الحبّ بابتسامهم أكثر مما يصوّرون الودّ الصحيح . وأكبر الظن أن المتنبّي نفسه كان من هؤلاء حين قال هذا البيت .

تملُّق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألاَ ترى إلى فلان قد كان أبعد الناس عن التملُّق ، فلما تقدَّمت به السنّ جعل إمعانه فيه يزداد من يوم إلى يوم ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان يعتمد على نفسه ما واتته قوة الشباب ، فلما أدركته الشيخوخة اتخذ من التملُّق عصاً يَدِبّ عليها .

كذب

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألاَ يَغيظك هـذا الثناء الذى لا يصدِّقه قائلوه ولا قابلوه ولا سامعوه ! .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كلاَّ يا بُنَىَّ ! لأنى أعلم أنَّ الناس أحرارٌ فى أن يقيموا حياتهم على الكذب ، ونحن أحرارٌ فى أن نعرف ذلك منهم أو نُنكره عليهم .

مروءة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألاَ تُحَدِّثنى عما ألمَّ بقوم كانوا كِرامًا أعِزَّة يَنْهَوْن عن الضَّعَة ويَنْأَوْنَ عن الصَّغَار ، فلما أدركتهم الشيخوخة أقبلوا متهالكين على ما كانوا يكرهون ذكره من صغائر الأمور ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنَّ تَقَدُّمَ السنّ لا يُضعف الجسم وحده ، ولكنه يضعف أيضاً العقول والنفوس والمروءة ، إلاَّ عند قليل من الناس يكادون يُحْصَون فى كلّ جيل .

نفاق

كُلِّفَ عملاً لا يُحسنه ولا يستطيع النهوضَ به ، يقصر به عن ذلك عقلُه وسنُّه جميعاً ، ولكنه مُنِحَ أجراً ضخماً ، ورُفِع إلى مكان ممتاز ، فشكَّ غير طويلٍ بين الأمانة التى تَحْرِمه ما يُعْرَضُ عليه من خير ، والخيانةِ التى تُرْضِى طموحه إلى المال والامتياز ، ولكنها تضيِّع على الشعب حقوقه ومنافعه ؛ فآثر الثانية لأنه يحرص على إرضاء أهوائه وشهواته أكثر مما يحرص على إرضاء الحق وإيثار المنفعة العامة .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ومع ذلك فالناس يلقَوْنه بالتّجِلَّة ويُثنون عليه بألسنتهم وأقلامهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نعم ! ولكنهم يزدرونه فى نفوسهم ، ويمقتونه فى ضمائرهم ، وتلعنه قلوبهم . وهل رأيت أمور الناس تدور على غير الكذب والنفاق ! !

نفاق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : من عسى أن يكون هذا الرجل الذى يقول فيه خالد بن صَفْوان إنه ليس له صديق فى السرّ ولا عدوٌّ فى العَلاَنية ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى وهو يبتسم : قد علمتَ أنه شَبِيبُ بن شَيْبَةَ .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : قد والله علمتُ ذلك وكأنّى لم أُحْسِنْ توجيهَ السؤال ، فعَلِّمنى كيف يستطيع الرجلُ أن يضع نفسه بحيث لا يكون له صديقٌ فى السرِّ ولا عدوٌّ فى العلانية .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : سبيل ذلك أن يملأ الرجل قلبه أثَرةً صادقةً لا تُفارقه ، ويُسبغ على وجهه ابتسامةً كاذبةً لا تُفارقه ؛ فهو إن فعل ذلك لم يحبَّ

إلا نفسه فى السرِّ والعَلانية ، ولم يُبغضه الناس فى ظاهر ما يكون بينهم وبينه من الصِّلة .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وتَظُنّ ذلك يسيراً سهلا ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ! إنَّ من النفاق ما هو أصعب احتمالاً على أصحابه من الصراحة .

نفاق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : متى يَحْسُنُ رأيك فى الناس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : متى حَسُنَ رأى الناس فى أنفسهم .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لم أفهم عنك .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لو حَسُنَ رأى الناس فى أنفسهم لما أقاموا حياتَهم على النفاق .

حياء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أتعرف أبلغَ من هذا البيت أثراً فى النفس :

وإنى لأستحيى أخى وَهْوَ مَيِّتٌ
كما كنتُ أستحيِيهِ وهو قريبُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نعم ! قول لَبِيدٍ :

ذَهَبَ الذين يُعَاشُ فى أكنافِهِمْ
وبَقِيتُ فى خَلْفٍ كجِلْدِ الأَجْرَبِ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإنى لا أفهم عنكَ ما تريد منذ اليوم !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإن الذين كانوا يستحيون إخوانهم أمواتاً كما كانوا يستحيونهم وهم أحياء قد ماتوا ، كما يقول العامة الآن . وبقى بعدهم هذا الخَلْفُ الذى يُشَبِّهه لَبِيدٌ بجلد الأجرب والذى لا يستحي من حيٍّ ولا من ميِّت ، ولاَ يستحي من نفسه ولاَ من الله .

إشاعات

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إلامَ أراد الشاعر القديم حين قال :

يقولون أقوالاً ولا يعلمونها
فإن قِيلَ هاتُوا حَقِّقُوا لم يُحَقِّقُوا

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أراد إلى مثل ما نُغْرِق فيه بين حين وحين مِن الباطل المذاع ، والزور المشاع ، والبهتان الذى تَفْسُدُ له الحياة العامة ، وتسوء له الصلات بين الناس ، وتقوم عليه مع ذلك أو مِن أجل ذلك أمورُ الأمة .

نهضة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما تقول فى شَعْبٍ يجرى أمرُه على جهل الشباب وطيشهم من جهة ، وعلى ضعف الشيوخ وحُمْقهم من جهة أخرى ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أقول إنه شعب ناهض يسعى إلى المجد بخطو سريع !

حقوق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : متى تصلُح الدنيا ويصلُح أهلها ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا أدرى! وما أحسب أن الدنيا تصلح أو أن أهلها يصلحون فى يوم من الأيام. ولكن هناك مقداراً من الخير لا يستقيم للناس بدونه أمر.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وما ذاك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ألاَّ تُتَّخَذَ حقوقُ الشعبِ ومَنَافِعُه مَطيَّةً إلى قضاء المآرب وإرضاء الشهوات.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وهل إلى ذلك من سبيل ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نعم! يوم يعرف الشعب حقوقه ومنافعه ، ويبيِّن لساسته وقادته أنه عليها حريص

ولها مُؤثر ، وأنه مستعدٌ لأَن يُضحِّى فى سبيلها بما تُضَحِّى به الشعوب الكريمة فى سبيل الاحتفاظ بالحقوق والمنافع العامة .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : هيهات !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : قد كنت أظن أن هذه الكلمة إنما تجرى على ألسنة الشيوخ ، فأما ألسنة الشباب فتجرى عليها كلمات أخرى !

صدق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألست قد علّمتنا صباح اليوم أنّ الخبرَ شيء يحتمل الصدق والكذبَ دائماً ، وأن هناك مُرَجِّحات تميل به إلى الصدق حيناً وإلى الكذب حيناً آخر ؟

قال الأستاذه الشيخ لتلميذه الفتى : بلى ! وما إعادتك فى المساء لحديثٍ جرى فى الصباح ؟

قال الطالب الفتى لأستاذ الشيخ : فإنك قد نسيت مُرَجِّحاً يرتفع بالأخبار إلى الصدق الذى لا شك فيه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : هو بطش الحاكم المستبدّ فيما مضى ، وظروف الحرب فى هذه الأيام . وما أذكرنى ذلك إلا قول أبى العلاء :

جَلَوْا صَارِماً وَتَلَوْا باطِلاً
وقالوا صَدَقْنا فقُلْنا نعم

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى وهو يضحك : فإن صارم الحاكم المستبدّ وحكم الحرب لا يُصَدِّقان خبراً كاذبا ، ولا يكذِّبان خبراً صادقا ؛ لأنهما يستطيعان أن يُراقبا القلم واللسان ، ولا يجدان سبيلا إلى مراقبة النفوس والقلوب .

صلة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : يُرْوَى عن عثمان — رحمه الله — أنه قال : « كان عمر يمنع أقرباءه ابتغاء وجه الله ، وأنا أُعطى قَرَاباتى لوجه الله ، ولن يُرَى مثلُ عمر . » فأىّ المذهبين أحرى أن يُتَّبَعَ ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لقد أنبأك بذلك عثمان نفسه حين قال : « ولن يرى مثل عمر » . والأمر أظهر من أن يحتاج إلى تأويل ؛ فمن الخير أن يعطى الرجل أقرباءه وأصدقاءه ومن لا يَمُتُّ له بصلةٍ ابتغاء وجه الله ، على أن يكون العطاء من ماله الخالص لا من مال الدولة ؛ لأن لمال الدولة مواضع ينبغى أن يُنْفَقَ فيها ، وليس من هذه المواضع إعطاء الأقرباء والأصدقاء .

ضعة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال قوم تسمو بهم منازلهم وثقافتهم إلى الرفيع من الأمر فلا يأتون إلاّ ما فيه ضَعَةٌ وتَسَفُّلٌ وانحطاط ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أولئك قوم يتفوّق فيهم سلطان الغرائز على سلطان الحضارة ، وقد خُلِقوا للضعة ، فلما حاولت الحضارة أن ترفعهم ثقلت عليها عقولهم وقلوبهم ونفوسهم وخفّت أجسامهم ، فارتفعت هذه الأجسام إلى المقام الممتاز وظلّت العقول والقلوب والنفوس حيث خُلِقتْ ، تجذبها الحضارة إلى أعلى فلا تنجذب ، وتجذبها الغريزة إلى أسفل فتُسْمِحُ وتُطيع .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألاَ ترى أن الحياة الديمقراطية تتكشّف عن كثير من هؤلاء ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ذلك أحرى أن يكون ؛

لأن الديمقراطية تُلغى القيود وتيسِّر الظهورَ لما خفى من أمور الناس، والارتفاعَ لمن حقّه أن يظلّ وضيعاً.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وأنت مع ذلك تحبّ الديمقراطية وتُؤثرها!!

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: نعم! لأنّ حسناتها أكثر من سيئاتها، ومنافعها أكثر من آثامها. والخير الخالص لم يتح للناس فى هذه الحياة.

نكسة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : قد كان فلان أبيًّا حَمِيًّا ذكيًّا مرتفعًا عمَّا يؤذى كرامةَ الرجل الكريم ، فلما بلغ السبعين ابتذل من نفسه ما لم يكن للابتذال سبيل إليه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ردّته السن إلى طفولة العقل ، وحفِظت عليه رجولة الجسم ، فأدركه شيء يُشبه النكسة .

تحكّم

فرّق أصحابه للسطو ، وضرب لهم موعداً لاقتسام الغنيمة ، فجاءه بعضهم بألف ، وجاءه بعضهم بخمسمائة ، وجاءه بعضهم بأكثر من ذلك وأقلّ .

فلما أراد القسمة زعم صاحب المائة أن حظّه يجب ألاّ يقلّ عن حظ صاحب الألف . وهمّ القوم أن يجادلوه ، فاضطرّهم إلى الصمت والإذعان ؛ لأنه أنذرهم بأن يرفع أمرهم وأمره إلى الشرطة .

ابتسامة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أليس يقال إن ابتسام الثغر آية على ابتسام النفس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وقد يقال إن ابتسام الثغر آية على عبوس النفس .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فقد رأيتُ على ثغر فلان ابتسامة لم أستطع لها تأويلا .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فى ذلك الاجتماع الذى شهدته اليوم ، أولم تسمع لما كان يقال ؟ أولم تَرَ إلى ما كان الناس يأتون من حركات ؟ .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : بلى ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فقد كنت تستطيع أن تقرأ فى تلك الابتسامة التى رأيتها على ثغر فلان

استخفافه بكل ما كنت تسمع ، وبكل ما كنت ترى ؛ لأنه كله لم يكن يصوِّر إلا الكذب ، والكذب الذى يريده أصحابه عن عمد ، وهم يعلمون أنهم يكذبون .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وهل تقوم هذه الاجتماعات إلاّ على هذا الكذب ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فإذا رأيت فلانا يبسم لها فاعلم أنه يستخفّ بها .

ضحك

قال أستاذ محنك وهو يبتسم لأساتذة محنكين لم يكونوا أقل منه ابتساما :

لقد تجاوزنا وقت الشك ، ولم يستطع أن يمضِيَ فى الحديث لأنه أغرق فى الضحك .

قال الأساتذة المحنكون : نعم ! ووصلنا إلى اليقين القاطع . ولم يستطيعوا أن يَمْضُوا فى القول لأنهم شاركوا صاحبهم فى ضحكه الذى كان يُغرق فيه .

ومال علىَّ صاحبى يسألنى : أيضحكون من أنفسهم أم يضحكون من الناس ؟ ولم يستطع أن يمضى فى الحديث لأنه أغرق فى الضحك .

قلت لصاحبى : هُمْ يضحكون من أنفسهم ومن الناس . ولم أُشارك صاحبى فى ضحكه الخافت ، ولم أُشارك القوم فى ضحكهم الصاخب ، وإنما لبثت باسماً أرثى لهم جميعاً .

جلاء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى مصر تتوسّط فى جلاء الفرنسيين عن سوريا ولبنان ! .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذا حسنٌ ، وأحسن منه أن تتوسَّط مصر فى جلاء البريطانيين عن أرض الوطن .

توبة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إلامَ أراد صاحب هذا البيت :

ألا قُلْ لأصحاب المخائض أهملوا
فقد تاب مما تعلمون يزيد

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ذاك لصٌّ كان يسرق الإبلَ ، وكان الناس يخافونه على أموالهم فيحتاطون لحراستها ؛ فهو يُعلن إليهم أنه قد تاب وأقصر عما يخافون، وليس كل لص قادراً على التوبة .

توبة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إلامَ أراد صاحب هذا البيت :

وإنّ امْرَأً ينجو من النّارِ بَعْدَ ما
تَزَوَّدَ مِنْ أعمالها لَسَعِيدُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أراد إلى أن حمل النفس على التوبة عن الإثم شيء عسير ، وإلى أن التوبة إن صحت فقبولها ورَدُّها إلى الله . فمن قارف الإثم أو تورَّط فيه ثم تاب وقبل الله توبته فهو السعيد .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وأنّى له أن يعلم أن الله قَبِلَ توبته أو رَدَّها ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : سيعلم ذلك حين تُعْرَضُ عليه أعماله يوم القيامة ؛ فهو إذاً لن يحقق هذه السعادةَ فى الدار الأولى .

فن

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : مابالُ فلانٍ يَنْسَى دارَ التمثيل إذا صُرِف عنه السلطان ، فإذا رُدّ إليه ألحّ فى زيارتها ؛ ولقد رأيته أمس وأول من أمس وأول من أوّل من أمس ، فذكرت قول الشاعر القديم :

هَجَرتُكِ حتّى قيل لا يَعْرِفُ الهوَى
وزُرْتُكِ حتى قيل ليس له صَبْرُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنه يحبّ أن يستمتع بالفن على ألاّ يؤدّى لذلك ثمناً .

كساء

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إذا صُرِف فلانٌ عن السلطان لم يره أحد ، فإذا رُدّ إلى السلطان رآه كل الناس .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنه يرى شخصه عورة لا ينبغى أن تظهر إلا أن تتخذ من السلطان كساء .

فصاحة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إذا صُرِف فلان عن السلطان لم يسمعه أحد ؛ فإذا رُدَّ إلى السلطان أكثر القول حتى أملّ الناس .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن له لساناً تُطلقه التولية ، ويعقله العزل .

فصاحة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إذا صرف فلان عن السلطان أطلق لسانه بالشر فى الناس جميعاً ؛ فإذا رُدّ إليه أطلق لسانه بالثناء على الناس جميعاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنه يسخط فلا يقول إلا شرًّا ، ويرضَى فلا يقول إلاّ خيراً ، وقد حيل بينه وبين خير الأمور .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : خير الأمور ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ألم تعلم أن خير الأمور أوساطها !

أعجوبة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثرَ ما يقول فلان فى علوم اللغة وهو أجهل الناس بها ، حتى استيقن أنه من أقدر الناس على التصرُّف فيها !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كأنما كان أبو العلاء يفكر فيه حين قال :

هـذا أبو القاسمِ أُعجوبةٌ
لِكلِّ مَنْ يَدْرِى ولا يَدْرِى
لا يقرض الشعرَ ولا يقرأ ال
قرآنَ وهو الشاعر المقرى

تملق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى إسراف « مارسيال » فى تملُّق مولاه قيصر حين زعم له أن خزائن الآلهة لا تكفى لمكافأته على ما قدَّم من خير !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : رأى قيصر نخافه وطمع فيه ، ولم ير الآلهة فلم يَخْفِل بهم . وأكبر الظن أن هذا الوثنىّ الذكى كان يَسْخَرُ من آلهته ومن قيصر جميعاً .

تملق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى هذا الشاعر اللاتينى الثرثار « مارسيال » كيف يَسْخَرُ من مصر وأهرامها ليُشِيد بهذا القصر الذى شاده قيصر ! ومع ذلك فقد مضى قيصر واندثر قصره ، وما زالت الأهرام باقية على الدهر .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن هذا الشاعر يا بُنَىَّ لم يسخر من الأهرام التى شادتها أيدى المصريين وحدها ، ولكنه سخِر من الجبال التى شادتها يد الله ، وإنّ تَمَلُّقَ القياصرة لَيُكَلِّفُ الشعراء شَطَطًا عظيما .

نقمة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثرَ ما اعتذر النابغة إلى النعمان ! فماذا جنى الشاعر أو ماذا نقم النعمان ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : جنى الشاعر الجناية الكبرى ؛ فقد كان حرًّا شاكراً لنعمة أسداها إليه غيرُ النعمان . ونَقَمَ النعمان من شاعره أنه لم يَخْلُصْ له من دون الناس . ألم تقرأ قول النابغة :

ولكنّنى كنتُ امرأً لِيَ جَانِبٌ
مِنَ الأرض فيه مُسْتَرَادٌ ومَذْهَبُ
ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما مَدَحْتُهم
أُحَكِّمُ فى أموالهم وأُقَرِّبُ
كصُنْعِكَ فى قوم أراك اصْطَفَيْتَهُمْ
فلم تَرَهُمْ فى شكر ذلك أذنبوا !

عزة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أترى الحُلَفاء يَفُوْن بميثاق الأطلَنْطِىّ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كما وَفَوْا بمبادئ الرئيس « ولسن » .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وإذاً ؟

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وإذاً فالشعب الذى لا يرجو مَنْحًا ولا يخشى منعاً ، وإنما يُنْصِفُ نفسه ويُنصف من نفسه ، هو الشعب العزيز الكريم .

توحيد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أليس مما يملأ القلوب غبطةً والنفوسَ رضا أن نرى مصر تعمل على توحيد كلمة العرب ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : بلى ! وأدْعَى من ذلك إلى الغبطة والرضا أن توحِّد مصر كلمة أبنائها .

جبن

قال موظف كبير لبعض رؤسائه السابقين : أحقٌّ أن ببابك رَصَداً يرقبون المُقْبِلين عليك والمنصرفين عنك ؟

قال الرئيس السابق : نعم ! أىّ رصد ! إنهم لا يغفلون عن طارق بالليل أو زائرٍ بالنهار .

قال الموظف الكبير : فاعْذِرْنى إن قصَّرْت عن زِيارتك.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا أعلم أن بباب فلان رَصَداً أيقاظاً أو نياما .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أراد فلانٌ أن يريح صاحبَه من مشقَّة السعى إليه ، وأن يُريح نفسه من لقاء الجبناء .

ملق

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بالُ قومٍ من العلماء يتحسسون من رأى الحكام فى العلم ليتخذوه لأنفسهم رأيا .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يريدون ألا يستأثر الناس من دونهم برضا الحكام .

ملق

رأيت قومًا يأكل الملق مروءتهم ، كما تأكل النار الحطب ، وكما يأكل الحسد قلب الحسود .

نحو

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أَأُصَـــدِّق النحويين وأصحاب اللغة أم أُصدق فلاناً مع أنه لا يقول فى النحو واللغة إلا خطأ ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : صَدِّق فلاناً لأَنه نحويٌّ لغويٌّ بحكم القانون .

مثل

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فَسِّرْ لى هذا المثل العربىَّ القديم :

« إلْبَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها
إمَّا نَعيمَها وإمَّا بوسَها »

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : تريد تفسير الجِدِّ أم تفسير الهَزْل ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أُريد تفسير الجِدِّ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فكن حُرًّا كريماً إن أذِنتْ لك نُظُم الحكم أن تكون حُرًّا كريماً ، وكن عبداً ذليلاً إن اقتضتك نظم الحياة أن تكون عبداً ذليلاً ، واتَّخِذ لنفسك ثوبين : ثوبِ النعيم تلبسه حين يُؤَذَّنُ

فى الناس بالحرية ، وثوب البؤس تلبسه حين يؤذَّن فى الناس بالرِّقّ . وأىَّ الثوبين لبست ، فكن عنه راضياً وبه محبوراً .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإن أردتُ تفسير الهَزْل؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فكن رَجُلاً حُرًّا كريماً لا تُبطره النعمة ، ولا تغضُّ منه النقمة . وإنك لتعلم أن الذين يحسنون الهَزْل قليلون .

مثل

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم يكن يقال فى قديم الزمان « إنَّ الناس على دين ملوكهم ! » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان ذلك يقال قبل أن تتحرر الشعوب ، فأما الآن فأحرى أن يقال إن الملوك على دين شعوبهم .

مثل

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألاَ يزال من الحقِّ أن الناس على دين ملوكهم ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : بلى ! وعلى دين رؤسائهم أيضا فى بعض البلاد .

مبدأ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بال فلان يتملّق حِزْبَ الكثرة وحزبَ القِلّة جميعا ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأنه يحتاج إلى الحزبين ، ولأن الحزبين يحتاجان إليه .

مبدأ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إنى أرى فلانا يتملّق البيئات السياسية مهما تختلف .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن الأيام دُوَلٌ ، ولأن الأرض تدور .

زهد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بالُ فلانٍ يأخذنا بالقَناعة ويُحَشِّم نفسَه أهوال الجشع ؟ .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يُؤْثِرُكم بالراحة ، ويشقّ على نفسه بالكَدّ والجَهْد .

سلطان

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : نُقِلَ إلى فلانٍ أنك قلتَ فيه ما يؤذيه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إنْ أُرْزَقِ السلطانَ فلن يؤذيه منِّى شىء مهما أقل فيه ، وإن أُحْرَمِ السلطانَ فسيؤذيه منِّى كل شىء .

وعظ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إن فلاناً لحكيمُ القول ، أحمقُ السِّيرة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لأن لسانه يَصْدُرُ عن عقله ، ولأن سيرته تصدُر عن قلبه ، ولأن الأسباب بين عقله وقلبه مقطوعة لا سبيل إلى أن تتصل .

وعظ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إن فلانا ليأمرنا بالمعروف ويدعونا إلى الخير حتّى نحبّه ، وإنه مع ذلك ليمعن فى الإثم ويتورَّط فى الخطيئة حتى نُبْغضه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أُتيحت له القدرة على أن يَصْدُقكم ، ولم تُتَحْ له القدرة على أن يَصْدُق نفسه .

وعظ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا أعرف أفصح من فلان إذا وعظ ، ولا أعْرِفُ أبعد منه عن سيرة الرجل الكريم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إن بعض الفن نفاقٌ يَبْرَعُ فيه صاحبه ، حتى يسحر الناس ، دون أن يكون بين هذا الفن وبين قلبه سبيل .

زهد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أكثرَ ما يُبغِّضُ فلانٌ إلى الناس أعراض الدنيا ! وما أكثر ما يتهالك على أعراض الدنيا ! وما أجدره أن يقول فلا يصدِّقه أحد ، وأن يدعو فلا يستجيب له أحد ؛ لأن الناس يرون مكانه من هذا التناقض .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما يُدريك ! لعله يصدُق فى النصح للناس ، ويكذب فى إغراء نفسه بالمال . خذ منه كلمة الحق ، وهَبْه كالصَّيْرَفِيّ المُزَيِّف تكثُر عنده الدراهم والدنانير الزائفة ، ولكنه لا يَعْدَم درهماً جَيِّداً أو دينارا عَيْناً .

زهد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لا أسمع من فلان إذا لقيتُه إلاّ النصح لى بالسموِّ إلى الروح والتنزه عن المادة ، ولا أقرأ له فصلاً إلا رأيته يحثُّ الناس على السموّ إلى الروح والتنزه عن المادة ، وهو على ذلك غارقٌ فى المادة إلى أُذنيه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ومن أجل ذلك أبْغَضَ المادة التى توشك أن تقتله ، فنصح للناس بالبراءة منها والتنزه عنها ؛ ولولا بُغْضه للثراء لما نصح لكم بالتجافى عنه .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وما يَمْنَعُه أن يتجافى عن ثرائه ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يمنعه من ذلك رجولته التى تفرض عليه احتمال المحنة والصبر على العذاب إمعاناً فى طاعة الله عزّ وجل ؛ فالله يمتحن الأغنياء بالغنى ، كما يمتحن الفقراء بالفقر .

رأفة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو قسّم فلانٌ ربع ثروته على أهل قريته لأغناهم، ولظلّ بعد ذلك أعظمهم ثراء.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هو أرأف بأهل قريته من ذلك ، حَسْبُه أن يحتمل وحده ثقل الثراء.

عطف

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو خرج فلان لأهل قريته عن بعض ماله ليسقيهم ماء نقيًا لذاد عنهم المرض ، ولاستفاد زرعه من صحة أجسامهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هو أعطف عليهم من ذلك . ألم تعلم أن المرض محنة يثاب عليها المريض إن أحسن احتمالها ، وأن الصحة فتنة يعاقب عليها الصحيح إن أساء استعمالها ؛ فهو يُؤْثِرُ أهل قريته بالثواب ، ويعصمهم من الفتنة .

زهد

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لم أر أشدَّ من فلان تزهيداً للشباب فى المال ، ولم أر أشدَّ منه حرصاً على جمع المال .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما تُنكر من ذلك ! إنه يؤدِّى إلى الشباب حقهم من النصح الصادق ، وإلى نفسه حقَّها من الثراء العريض .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فهَلّا نصح لنفسه بمثل ما ينصح به للناس ! .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ألم تقرأ بيت البردة :

أمَرْتُكَ الخيرَ لكن ما ائتمرتُ به
وما استقمتُ فما قَوْلِى لكَ استقم

إنما الحق على الشباب أن يتلقَّوا كلمة الخير ولو من الشرير ، وكلمة البر ولو من الفاجر ، وكلمة الزهد ولو من الشَّرِهِ المسرف فى الطمع . لهم خير ذلك ، وعلى من يكذب عليهم إثم مايقترف من الكذب .

جاه

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أجْدَرَنا أن نتمثل فى كثير من الأحيان بقول « مارسيال » لبعض أصحابه : « إن هذا الذى يعلن إليك المودة والحب إنما يحب مائدتك المثقلة بالطيّبات . ولو قد أثريتُ وأثقلت مائدتى بلذيذ الألوان لأصبح لى صديقا » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : نعم ! ولا سيما إذا وضعنا الجاه مكان المائدة ، ووضعنا المنافع العاجلة مكان ألوان الطعام . فما أكثرَ الذين يغيِّرون أصدقاءهم بتغيُّر الوزارات !

سؤال

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أُحِبّ أن تُجيب على هذا السؤال الذى أَلقاه « مارسيال » على بعض أَصحابه مداعباً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ذاك أَن فلاناً باع مزرعته واشترى بثمنها غلاماً حسناً ، وأَن فلاناً باع غلامَه واشترى بثمنه مزرعةً خِصبة ؛ فأحدهما يحب ، والآخر يزرع الأرض ، فأيهما أَحسن حالاً ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له .

قرض

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بالُ قومٍ يَعْمُرون الحاناتِ والمراقص ، ويقترفون السيئات والآثام ، فيشربون ويطربون ويلعبون ، ويريدون بذلك كله إغاثة الملهوف ، وإطعام الجائع ، وإعانة البائس المحروم ؟

قال أحد الحاضرين : أولئك قوم يُحَادُّون الله ويُوَادُّون الشيطان .

قال آخر : أُولئك قوم يتَّخذون غضب الله القوىّ وسيلةً إلى رضا الإنسان الضعيف .

قال ثالث : أُولئك قومٌ يُقْرِضون الله بالربا ، ولكنهم يتعجّلون الفائدةَ فى الدنيا مخافة أن تضيع عليهم فى الآخرة .

قال رابع : أولئك قوم وثقوا بالحياة العاجلة فاغتنموا لذّاتها ، وشكّوا فى الحياة الآجلة فلم ينتظروها .

قال الأستاذ الشيخ لتلاميذه الفتيان : أولئك قومٌ يحسُنُ أن تقرءوا فيهم إن شئتُم قول الله عز وجل :

« أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِّ وَبِمَا كُنْتُم تَفْسُقُونَ . »

موسيقى

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم يَبْلُغْنى أنك لا تأوى إلى غُرفتك إذا تقدَّم الليل حتى تسمع ألحاناً من الموسيقى ، ففيم هذه العادة ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أغْسِل بها نفسى من أوضار الحياة الاجتماعية .

سعادة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أليس جميلاً قولُ « مارسيال » لأحد أصدقائه إنه شقيٌّ بسعادته .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : بلى ! كما أن بعض الناس يَسْعَدون بشقائهم .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : الحق أنّى لم أفهم عنك ، كما أنّى لم أفهم عن « مارسيال » ، وإنما تُعْجِبنى صيغتك ، كما تُعجبنى صيغتُه لِمَا أرى فيهما من المطابقة .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : الأمر أدنى إلى الجِدِّ من المطابقة ؛ فالسعيد يَشْقَى بسعادته لأنه يحتاج منها إلى أكثر مما ينالُ ، والشقىُّ يَسْعَدُ بشقائه لأنه يجد هذه اللذّة البغيضة التى يشتقّها من الغيظ لنعمة الناعم ، وتَرَف المُتْرَف ، والتى يمكن أن تسمّى حسدًا . ولكلا هذين الأمرين اسم بغيضٌ فى الأخلاق ؛ فشقاءُ السعيد بسعادته بَطَرٌ ، وسعادةُ الشقىِّ بشقائه حسدٌ .

عجز

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما تأويلُ هذا البيت من شعر الحماسة :

فازْجُرْ حِمَارَكَ لا يَرْتَعْ بِرَوْضَتِنَا
إذاً يُرَدَّ وقَيْدُ العَيْرِ مكروبُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذا مَثَلٌ أراد به الشاعر تصوير قدرته على عِقاب من يعتدى عليه . وما أَكْثَرَ الحميرَ التى ترتع فى رياض الناس هذه الأيام ، فلا تجد مَنْ يَرُدّها ، أو يصدُّها ، أو يملك لها عقاباً .

زيارة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : قد كان فلان يُكْثِرُ من زيارة فلان قبل أن يتنكَّر له السلطان ، فلما أعرضت عنه الدنيا أعرض معها .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا ! ولكنه يزوره ويُطيل الإقامة عنده إذا جَنَّ عليه الليل ، لأنَّ آية النهار مُبْصِرةٌ ؛ فإذا انصرف أنشد قول المتنبّي فى بعض مدائحه لكافور :

أَزُورُهُمْ وسَوَادُ اللَّيل يَشْفَعُ لِي
وأَنثَنِى وبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِي

تاريخ

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أتصدِّقُ أن التاريخ يُعيد نفسه ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا أُصَدِّقَ ذلك ولا أُكذِّبه ، ولكن لِمَ تُريد ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أُريد أن التاريخ سخيفٌ لا خَيْرَ فيهِ إن كان يُعيد نفسَه ؛ لأنَّ ذلك يدلُّ على أنه لم يستطع للناس وعظاً ولا إصلاحا .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وما ذنبُ التاريخ إذا كانت طبيعة الناسِ لا تتَّعظ ولا تقبلُ الإصلاح ! فقُلْ إن التاريخ سخيفٌ ، كما أن الموت سخيف ؛ لأن الموت يعيش بين الناس ولا يبلُغ من نفوسهم موعظةً ولا إصلاحا .

نفوس

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما تقول فى هـذا البيت الذى لايسأم الناس إنشاده من شعر المتنبِّ :

وإذَا كانتِ النفوسُ كِبَاراً
تَعِبَتْ فى مُرَادِها الأجسامُ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وماذا تريد أن أقول فيه ؟ إنما هو حكمةٌ من هذه الحِكم التى يُرسلها المتنبِّ فتطّرد أحياناً ، وتَقْصُرُ عن الاطراد أحياناً أخرى ، فمن كِبار النفوس ما تُتْعِبُ الأجسامَ ، ومنها ما لا يَمَسّ الأجسامَ بتعب قليلٍ أو كثير .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فلو أن المتنبِّ وضع النفوس الصغار موضع النفوس الكبار ، فكيف كان يقول ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان يقول :

وَإذا كانتِ النفوسُ صغاراً
تَعِبَتْ فى مُرادها الأجسامُ

وكان ذلك أحرى أن يكون مُطّرداً مصيبًا . والشىء الذى لاشكّ فيه هو أن المتنبى أخطأ الغَرَضَ الذى كان ينبغى أن يرمى إليه .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وما عسى أن يكون هذا الغرض ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هو أنَّ كِبَارَ النفوس تُحَمِّل صغارَها أعباءً ثِقالاً ؛ لأنها تُسَخِّرها لما تريد من عظيم الأمر ، وأن صغارَ النفوس تكلِّف كبارَها آلامًا مُمِضَّةً لأنها تَقْصُر عن أن تُبلغها من عظيم الأمر ما تريد .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وإذاً ؟ !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وإذاً ، فقد خُلِق الناسُ ليكون بعضهم لبعض مصدرَ مِحْنَةٍ وشقاء . وأصاب زيادٌ حين قال :

« نسأل اللهَ أنْ يُعِين كُلاًّ على كُلٍّ . »

صمت

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألاَ تُفَسِّر لى هذا البيت الذى تُكْثِرُ أنشاده بين حين وحين :

ولو أن قومِى أنطقتنى رِمَاحُهُمْ
نطقتُ ولكِنّ الرِّماحَ أَجَرَّتِ

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذا بيتٌ رائع ، صوّر به عمرو بن معدى كرب خيبة أمله فى قومه حين لَقُوا عدوَّهم ثم فرّوا ولم يبلُغوا منه شيئًا ، وكان عمرو بن معدى كرب شاعر قومه ، فكان أحبّ شىء إليه أن يملأ الأرض غِناءً بمفاخرهم ومآثرهم . وأىُّ شىء أشقّ على الشاعر من أن يُضْطَرَّ إلى الصمت !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وما تَمثُّلك أنت بهذا البيت بين حين وحين ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أتظن أن الناس من حولنا يُبلون البلاء الحسن فى كل مواطن الجِدِّ ! !

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فأَنْشِدْ مثلى قولَ عمرو بن معدى كرب :

ولو أنّ قومِى أنطقتنى رماحُهُمْ
نطقتُ ولكِنَّ الرماحَ أَجَرَّتِ

ثقة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وَثِقَ فلانٌ بأصدقائه حين لم يكن محتاجًا إليهم ، فلما جَدَّ الجِدُّ أخلفت الأيَّامُ ظنَّه ؛ فهو بذلك شقيٌّ ، وله محزون .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فاعْتبِرْ أنت بِمِحْنته فى أصدقائه ، وأقِمْ رأيك فى الناس على هذا البيت الرائع القديم :

وإنْ حَدَّثَتْكَ النَّفْسُ أنَّكَ قادرٌ
على ما حَوَتْ أيدى الرِّجالِ فَكَذِّبِ

مُنًى

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أحسَنَ ما تمنَّى « مارسيال » ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : وماذا تمنَّى ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : « تمنَّى ثروةً لا تُكْسَبُ بالكدّ ، وإنما تُكْسب بالميراث ، وأرضًا لا تُكذِّب أملَ صاحبها ولا عمله ، ودارًا عامرةً لا تخبو نارها ، وراحةً من الخصومة أمام القضاء ، وقليلاً من زيارة أصحاب السلطان ، ونفسًا هادئة مطمئنّة ، وجسمًا يجمع القوة والصحة إلى الظرف والنشاطَ ، وصراحةً قِوامُها حسن الأدب ، وصديقًا أكفاء وضيفًا أسماحا ، ومائدة أنيقةً فى غير تَكلُّف ، وليالىَ لا سكر فيها ولا هَمّ ، وزَوْجًا مُحْصَنَةً لا تُغرق فى الحياء ، ونومًا يختصر ظلمة الليل ، واطمئنانًا إلى الحال التى هو

عليها دون طموح إلى حال أخرى ، وأمنًا من آخر أيام الدنيا دون تَعَجُّلٍ له .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان « ما رسيال » أندلسيّ المنشأ ؛ ولقد أحسنَ التمنّي ، ولكنه لم يسمع قول مُواطنه العربيّ بعد موته بقرون طِوال :

وَإِذَا ارْتَمَتْ نَحْوِى المُنَى لأنالَها
وَقَفَ الزَّمانُ لَها هُناك فعاقها

فهرس

	صفحة
تقدمة	٥
دعاء	٢٩
قيض	٣٠
حرية	٣٢
حرية	٣٣
أدب	٣٤
حرية	٣٥
حرية	٣٦
وصول	٣٧
ضمائر	٣٩
جحود	٤١
حمارا رهان	٤٣
حـلة	٤٤
وقار	٤٥
ذاكرة	٤٦
إخاء	٤٨
إخاء	٥٠
إخاء	٥٢
إخوان	٥٤
ذوق	٥٦
معارضة	٥٩
معارضة	٦١
معارضة	٦٣
معارضة	٦٤
وصف	٦٥

	صفحة
عقوق	٦٦
فن	٦٨
خصام	٦٩
موعظة	٧١
تجن	٧٣
نعمة مضيعة	٧٥
غرور	٧٦
غرور	٧٨
غرور	٧٩
وجوم	٨٠
تضليل	٨٢
قطط	٨٣
قصور	٨٤
تكريم	٨٥
غيبة	٨٦
ظـلم	٨٨
رجوع	٨٩
رعية	٩٠
رعية	٩١
رعية	٩٢
رعية	٩٣
رمز	٩٤
غيرة	٩٥
مجون	٩٦
تلطف	٩٧

	صفحة
هجرة	٩٨
هجرة	١٠٠
تصوير	١٠٢
رقى	١٠٣
رقى	١٠٤
رقى	١٠٥
رقى	١٠٦
رقى	١٠٧
تعريض	١٠٨
ضحك	١٠٩
ضحك	١١٠
انتصار	١١١
ذوق	١١٣
رفق	١١٤
إيثار	١١٥
نفع	١١٦
كفاية	١١٧
رق	١١٨
رسالة	١١٩
جحود	١٢٠
استخارة	١٢١
معبد	١٢٣
تبذير	١٢٤
هجاء	١٢٥
رقابة	١٢٦
خادم	١٢٧
وعود	١٢٨
نزاهة	١٢٩

	صفحة
تخليط	١٣٠
منفعة	١٣١
أخلاق	١٣٢
كساد	١٣٤
عفة	١٣٥
ثعالب	١٣٦
فرار	١٣٨
كيد	١٣٩
كيد	١٤٠
صفح	١٤١
سخرية	١٤٢
تقدير	١٤٣
ابتسام	١٤٤
تملق	١٤٥
كذب	١٤٦
مروءة	١٤٧
نفاق	١٤٨
نفاق	١٥٠
نفاق	١٥٢
حياء	١٥٣
إشاعات	١٥٥
نهضة	١٥٦
حقوق	١٥٧
صدق	١٥٩
صلة	١٦١
ضعة	١٦٢
نكسة	١٦٤
تحكم	١٦٥

	صفحة		صفحة
ابتسامة	١٦٦	زهد	١٨٩
ضحك	١٦٨	سلطان	١٩٠
جلاء	١٦٩	وعظ	١٩١
توبة	١٧٠	وعظ	١٩٢
توبة	١٧١	زهد	١٩٣
فن	١٧٢	زهد	١٩٤
كساء	١٧٣	رأفة	١٩٥
فصاحة	١٧٤	عطف	١٩٦
فصاحة	١٧٥	زهد	١٩٧
أعجوبة	١٧٦	جاه	١٩٨
تعلق	١٧٧	سؤال	١٩٩
تعلق	١٧٨	قرض	٢٠٠
تقمة	١٧٩	موسيقى	٢٠٢
عزة	١٨٠	سعادة	٢٠٣
توحيد	١٨١	عجز	٢٠٤
جبن	١٨٢	زيارة	٢٠٥
ملق	١٨٣	تاريخ	٢٠٦
نحو	١٨٤	نفوس	٢٠٧
مثل	١٨٥	صمت	٢٠٩
مثل	١٨٧	ثقة	٢١١
مبدأ	١٨٨	متى	٢١٢

١٤٥١/١/٣/١٩٤٥

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE
C28(946)M100			

893.7H954 S

JUL 23 1942

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58873660
893.7H954 S
Jannat al-shawk.